# الحياء شعبة من الإيمان

د. محمد محمود متولي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي المصطفى الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين.

وبعد : فالحياء قد اختصه الرسول الكريم بالنص عليه دون شعب الإيمان كلها، فقال : «والحياء شعبة من الإيمان» وهذا الاختصاص للحياء بالذكر يفهم منه أهمية الحياء في إصلاح الفرد والمجتمع، واستغناء الحيي عن مراقبة غيره لنفسه بمراقبته لها، وتذكيرها بنعم الله وشكرها، والناس إذا غفلوا عما يمكن أن تصنعه القدرة الإلهية بهم، أو نسوا تقدير النعمة حق قدرها، وجب تذكيرهم إذا كانوا كبارا، وتربيتهم على ذلك إذا كانوا صغارا، وهذا البحث عن الحياء قد وقع في ثلاثة مباحث :

الأول: «الحياء محور التربية الإسلامية».

وفيه عرفت الحياء، وذكرت أنه محور للتربية الإسلامية، يمكن أن تدور حوله معظم الصفات الطيبة، كما تعرضت لمدحه في السنة النبوية، وكيف دعت إليه، وأن الشرائع السماوية كلها تواصت به.

وفي المبحث الثاني: تعرضت للبذاء ـ وهو نقيض الحياء ـ وذم الرسول الكريم له، وآثار التوقح في المجتمعات، وكيف أن الفرد والجماعة إذا فقد لديهما الحياء ينتقلان من سيء إلى أسوأ، حتى ينتهي بهما الحال إلى الخروج من ربقة الإسلام.

وأما المبحث الثالث: فقد ذكرت فيه أقسام الحياء من حيث ذاته إلى غريزي ومكتسب، ومن حيث المستحَي منه : من الله، ومن الرسول ﷺ، ومن آحاد الناس، ومن النفس.

ثم ذكرت أقسامه من حيث المستحِي، وتعرضت لما يتوهم أنه حياء وليس بحياء، وقد احتفى به علماء التفسير والحديث والأخلاق. وذكروا كثيرا من الآثار حوله. وأرجو أن أكون قد وفقت فيما كتبت، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

# المبحث الأول
# الحياء محور للتربية الإسلامية

**تعريف الحياء :**

الحياء لغة : من الحياة، ومنه الحيا للمطر [1]. لأن الأرض تحيا به بعد موتها. قال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فصلت : ٣٩.

كما أنه احتشام ورقة، وإغضاء عن المكروه طبعا، وهو خوف شديد مما يلام فاعله.

«يقال : حيي منه، إذا احتشم، فهو رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهته، أو عند إرادة شيء يكون تركه خيرا من فعله.

والإغضاء : التغافل والتجاوز عما يكره الإنسان بطبيعته لا بشريعته. .[2].

والحياء والاستحياء والاستحاء كلها بمعنى واحد، يقول ابن منظور : «وقد حيي منه حياء، واستحيا واستحى. . . غير أن الأخيرتين تتعديان بحرف وبغير حرف، يقولون : استحيا منك، واستحياك، واستحى منك، واستحاك.

قال ابن بري : وشاهد الحياء بمعنى الاستحياء : قول جرير في رثاء امرأته.

لولا الحياء لهاجني استعبار ... ولزرت قبرك والحبيب يزار[3]

ويقال: رجل حيي، ومعناه: تمكنه من تلك الصفة الكريمة.

«وحيي الرجل على وزن نسي، وكأن صاحب الحياء قد صار منكسر القوة،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم، ج١ ص٣٩ ـ دار الوفاء بالمنصورة.

(٢) منهاج اليقين للشيخ أويس وفابن محمد بن خليل بن داود الأرزنجاني، الشهير بخان زاده، شرح أدب الدنيا والدين للماوردي ص٤١٢ دار الكتب العلمية ببيروت.

(٣) لسان العرب لابن منظور ج١٤ ص٢١٧ ـ دار صادر بيروت.

منغص الحياة، لما يعتريه من الانكسار والتغير، كما يقال : هلك فلان حياء من كذا، ومات من كذا، وذاب حياء. . وكذا يقال : تحيًا فلان من فلان، إذا انقبض وانزوى، لأن من شأن صاحب الحياء أن ينقبض[1]

وأما الحياء اصطلاحا: فله تعاريف كثيرة.

منها تعريف ابن الصلاح، وقد حده : بأنه خلق يمنع من القبيح، ومن التقصير في الحقوق.

وحده الزمخشرى بأنه : تغير وانكسار يلحق الإنسان من فعل أو ترك ما يذم به[2]

وتعريف ابن الصلاح ركز على الحياء كباعث على المنع من القبيح، أو على المنع من أداء الحقوق.

وتعريف الزمخشرى ركز على آثار الحياء، وهي التغير الذي يلحق المستحي.

وهناك فرق بين الحياء كباعث، وبين النتائج والآثار المترتبة عليه، كالفرق بين السبب والمسبَّب.

وتعريف الجنيد كالتعريف الأول، لأنَّ رؤية الآلاء والتقصير هى سبب للحياء، والحق أنه ليس أحد التعريفات بأولى بالأخذ به من الآخر، لاسيّما وأنه قد اتضح أن بعضها ركز على الحياء كسبب، وبعضها ركز علي الحياء كنتيجة، وكلاهما ملازم للآخر

وإذا كان الترجيح ضروريا، فإن تعريف السهارنقورى أولاها بالقبول للأمور التالية:

أولا : لأنه يركز على الانكسار الذى يصيب المستحي.

ثانيا : لأنه يشمل الحياء من الله، والحياء من الناس، والحياء من النفس فهو يشمل الحياء كباعث وكنتيجة.

وذلك الذى يذم به المرء: إما أن يكون مذموما من قبل الشرع لحرمته أو كراهته، وإما أن يذم عرفا، وهو مذموم ما دام العرف صحيحا لا يناقض كتاب الله ولا سنة رسوله ﷺ، وقد عرفه بعضهم بما يجمع ما أشرت إليه فقال : «هو انكسار يعتري النفس ويكفها عن المذموم شرعا أو عرفا»[3] والدافع إلى هذا الانكسار والتغير

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن، ج١ ص٨٧، الشيخ أحمد الشرباصي. دار الرائد العربي ط أولى ١٩٨١م.

(٢) شرح الآبي على صحيح مسلم ج١ ص١٣٠ دار الكتب العلمية ببيروت.

(٣) بذل المجهود في حل أبي داود، للشيخ خليل السهار نفورى ـ بتعليق الشيخ محمد زكريا الكاندهلوى ج١٩ ص٥٠.

هو غريزة حب الكمال، والنفور من النقص، والتقلب في نعم الله. ولذا عرفه الجنيد بقوله : الحياء رؤية الالآء ورؤية التقصير، فيتولد منهما حالة تسمى حياء.

وتدور هذه التعريفات جميعا على أن الحياء يمنع من ترك المأمور بفعله، أو فعل المأمور بتركه، وهو المنهي عنه، وأنه شعور نفسي يدفع إليه قلب حي، وأنه يمنع من الجحود والنكران لفضل أصحاب الفضل، وأن المتصف به نزاع إلى الكمال، وأنه بين تقلبه في أنعم الله، وتقصيره في شكرها، متفكر أبدا لا يغفل، فهو مدرج من مدارج السالكين إلى رب العالمين، كما وصفه ابن القيم في مدارج السالكين.
ولهذا أشارت الآيات القرآنية الكثيرة إلى تلك السجية الكريمة
يقول تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ سورة العلق : ١٤.
ويقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ النساء : ١.
ويقول : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ غافر : ١٩.

وفي السنة النبوية أحاديث كثيرة في مدح الحياء، وأنه سنة من سنن النبوة الأولى.
روى ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ مر برجل ـ وهو يعظ أخاه في الحياء ـ فقال : «دعه، فإن الحياء من الإيمان» متفق عليه.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول ﷺ : «الحياء لا يأتي إلا بخير» متفق عليه.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :
«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا اله الا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان». متفق عليه.
وعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أنه قال : «كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه». متفق عليه.

وفي الصحيح عنه ﷺ «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى» إذا لم تستح فاصنع ما شئت». رواه البخاري.
وفي الترمذي مرفوعا : «استحيوا من الله حق الحياء. قالوا : إنا نستحيي يا رسول الله، قال : ليس ذلكم، ولكن من استحيا من الله حق الحياء، فليحفظ الرأس وما

وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء[1].

**الحياء محور للتربية الإسلامية :**

في تعريف الجنيد للحياء ذكر أنه : رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، ورؤية الآلاء توجب الشكر، ومن شكر الله لهج لسانه بالثناء عليه، وقلبه بالحب له، وجوارحه بالمسارعة إلى طاعته سبحانه وتعالى، ورؤية التقصير موجبة للخوف، لأن العاصي لربه على خطر عظيم.
والحياء شكر الآلاء. والخوف من التقصير، فهو مركب من شكر وخوف، أي شكر محفوف بتقدير شديد بالغ العظمة لمن أعطى وهو الغني، وصبر على العصاة وهو القوى، وهذا هو الفرق بين الخوف والحياء، وبين المراقبة والحياء.

ولذا قيل : إنه انكسار يعتري المرء إذا لم يفعل ما أمر به، وإذا فعل ما نهي عنه، فهو إذا لم يفعل ما أمر به كان كنودا كفارا، وإذا فعل ما نهي عنه كان متجاوزا لحدود ربه، ولقد ذكر الله جل ذكره في القرآن جزاء الكنود فقال : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ إبراهيم : ٧.
كما ذكر جزاء تجاوز حدوده فقال جل وعلا : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ النور : ٦٣.

ولهذا تعتمد تربية الفرد المسلم على الحياء كمحور رئيس لها، إذ بالحياء يوجد الدافع الداخلي للمحافظة على أوامر الله ونواهيه، وهو أمر لا يبدأ عند البلوغ، وإنما يولد به الإنسان، وتربيه أو تمحقه التربية، فالتربية الصالحة تعمل على استثمار غريزة الحياء الموروثة، ولا تغرس ضدها من الوقاحة والتفحش، وعن أهمية الحياء في التربية يقول الإمام الغزالي :

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ج١ ص١٨٩.
والحديث الأخير تكلم في رفعه علماء الحديث وضعفوه، لأن الصباح بن محمد مجمع على تضعيفه، والصواب: وقفه على ابن مسعود رضي الله عنه. انتهى . من الفتح الرباني ج١٩ ص٩٠ هامش ١٠.

«ومهما رأى ـ أي الوالد أو المعلم ـ فيه ـ أي في الطفل ـ مخايل التمييز، فينبغي أن يحسن مراقبته، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي، ويترك بعض الأفعال، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه، حتى يرى بعض الأشياء قبيحا، ومخالفا للبعض، فصار يستحي من شيء دون شيء، وهذه هدية من الله تعالى إليه، وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق، وصفاء القلب، وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل، بل يستعان على تأديبه بحيائه، أو تمييزه»[1].

والاحتشام والاستحياء والإقبال على الحسن، والانصراف عن القبيح وثيق الصلة بيقظة الضمير، وهو ما يجعل على الإنسان حارسا من نفسه، يبصره بحقوقه فيطلبها، وبواجباته فيؤديها، وذلك هو الأساس المتين لسعادة الفرد والجماعة، وصدق الله العظيم ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ الشمس : ٧ ـ ١٠.

فالحياء إذن ينفع الطائع فيزداد طاعة، وتكون طاعته عن يقظة ومعرفة بمن يطيع، وكذا العاصي إذ يكفه عن المعصية، لأنه «فعل الطبيعة الكريمة، يختص الله به من يشاء من خلقه، ينفع العاصي والمطيع، أما المطيع فقد زايل كل خلق دنيء، وأما الفاسق فلم يجمع مع فسقه فسوقا وتهتكا»[2].

وأصح الموازين وأصلحها لوزن الطيب والخبيث هو ميزان الشرع، وكل ميزان سواه عرضة للحيف في الفكر أو في السلوك، ولذا لا يصلح لأن يقوم عليه الحياء إلا جملة من الأمور المستندة إلى الإيمان باطلاع الله على عباده، وقد ذكر بعض العارفين أثر الحياء في الفرد والجماعة فقال :

«التحقيق : أن الحياء ينشأ عن علم القلب بأن الله رقيب عليه، فيحفظ ظاهره وباطنه من مخالفة أحكامه، ويستقبح ما صدر من هفواته، ويتحمل أنواع البلاء نشيطا، ولا يشتكي إلى غيره، فإذا ترقى عن ذلك، وتحقق أن الله تعالى جل جلاله، ولا اله غيره أقرب الأشياء إليه بلا ريب، استحيا من قربه فوق ما يستحي من رؤيته، فيدعوه ذلك إلى محبته، والخلوة معه، مستوحشا من الأغيار، مستلذا بروح

---

(١) إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ج٣ ص٧٢، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.

(٢) الرعاية لحقوق الله، للحارث بن أسد المحاسبي ص٢٨٠.

أنس الملك الغفار، حتى تطلع عليه طوالع أنوار التوحيد، وتلمع في سره بوارق أسرار التفريد، فيستحي من شهود مشهوده، فانيا عن الخلق باقيا مع الحق[1].
وبهذا لا يحل خلق محل الحياء في قيام التربية الإسلامية عليه، وأي خلق يمكن أن يجمع بين :
أ ـ حفظ الظاهر والباطن.
ب ـ استقباح الهفوات.
جـ ـ تحمل أنواع البلاء بنشاط لا يفتر ولا يكل أو يمل.
د ـ عدم الشكوى للغير، لأنها شكوى الخالق إلى الخلق، وذلك ليس دأب الصالحين.
هـ ـ الإحساس بشدة قرب الله من عبده.
و ـ محبته والخلوة معه في طاعته وعبادته والاعتماد عليه وحده.
ز ـ ثم تأتي العطايا والمنح جريا على قانون التخلية والتحلية، فالمؤمن يتخلى عن مخالفة أمر الله، فيحليه الله بما يعلي قدره. ويرفع ذكره، وينشرح به صدره.
والنتيجة: الفوز بكمال الإيمان، يقول الحليمي: «الحياء من الله طريق إلى كل طاعة، وترك كل معصية، فيفوز صاحبه بكمال الإيمان.
وقال بعض الحكماء : من كساه الحياء ثوبه، لم ير الناس عيبه.
وقال بعض البلغاء : حياة الوجه بحيائه، كما أن حياة الغرس بمائه[2].
ومما يستتعبه كون الحياء محوراً للتربية الإسلامية أن يكون :
أ ـ الحياء خلق الإسلام.

فلكل دين خلق تتمحور حوله كل أخلاقه، فهو في النصرانية السماحة، وفي اليهودية الشدة، عكس المسيحية التي جاءت سماحتها وروحيتها رد فعل لقسوة اليهودية، وقد جاء عيسى عليه السلام مصدقا لما بين يديه من التوراة، ومحللاً لبني إسرائيل بعض ما حرم عليهم.

فأما الإسلام فإن خلقه المحوري هو الحياء، وقد روي عن بن طلحة بن ركانة، يرفعه إلى النبي ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ وعلى آله وسلم : «ان لكل دين خلقا، وخلق الإسلام الحياء» رواه مالك في الموطأ.

---

(١) مرقاة المفاتيح ج٤ ص٧٣٧.
(٢) منهاج اليقين ص٤١٣.

فما معنى اختصاص الإسلام بأن أبرز أخلاقه هو الحياء؟ يرد على ذلك الزرقاني في شرحه على موطأ الإمام مالك فيقول :

ومعنى «لكل دين خلق» : أى سجية شرعت فيه، وحض أهل ذلك الدين عليها.

ومعنى «وخلق الإسلام الحياء» : أي طبع هذا الدين وسجيته التي بها قوامه، ومروءة الإسلام التي بها جماله: الحياء. فإذا أحيي القلب بالله ازداد منه حياء.

ألا ترى أن المستحي يعرق وقت الحياء، فعرقه من حرارة الحياء، التي هاجت من الروح، فمن هيجان الحياء تفور الروح، فيعرق أعلى الجسد بالذات، لأن سلطان الحياء في الوجه والصدر، وذلكم من قوة الإسلام، لأن الإسلام : تسليم النفس. والدين : خضوعها وانقيادها، فلذا صار الحياء خلقا للإسلام، فيستحي المسلم من ربه. ذكره الحكيم الترمذى.

وقال غيره : يعني الغالب على كل دين سجية سوى الحياء. والغالب على أهل الاسلام الحياء، لأنه متمم لمكارم الأخلاق، التي بعث ﷺ لاتمامها، ولما كان الإسلام أشرف الأديان أعطاه الله أسنى الأخلاق وأشرفها وهو الحياء[1].

وبهذا الدور الشريف للحياء يصد عن كل قبيح، ويصل صاحبه بكل جميل، ولو لم يكن أمرا شرعيا لكان أمرا فطريا إنسانيا.

ب ـ الحياء وفطرة الإنسان :

إن الإنساء على الحياء، ولذلك يمشي متسترا، ويتجنب معظم أفراده التعري، ويأتي أعماله الجنسية في ستر، بعيدا عن الأعين، متميزا عن الحيوان، الذي يأتي أموره الغريزية دون حياء أو خوف، على قوارع الطرقات، وهو كما أسلفت «من خصائص الإنسان ليرتدع عن ارتكاب كل ما يشتهي، فلا يكون كالبهيمة وهو مركب من خير وعفة»[2].

جـ ـ وجه تخصيص الحياء بالذكر.

إذا كان الحياء رؤية النعم الإلهية ورؤية التقصير البشري، فهو باعث على امتثال المأمورات واجتناب المنهيات، وعليهما مدار الإسلام في أحكامه الخمسة: الفرض، والحرام، والمباح، والمكروه، والمندوب.

---

(١) شرح الزرقاني على موطأ مالك، ج٤ ص٢٥٧.

(٢) شرح الزرقاني على موطأ مالك، ج٤ ص٢٥٧ ـ دار الفكر ١٩٣٦م.

يقول القنوجي : وإنما خص الحياء بالذكر في الحديث «والحياء شعبة من الإيمان» لأنه كالداعي إلى باقي الشعب، لأنه يبعث على الخوف من فضيحة الدنيا والآخرة، فيأتمر الإنسان وينزجر[1].
وهو أيضا غير منحصرة آحاده من جهة المستحيين.

فالمستحيون أفراد غير منحصرة أعدادهم، وأجزاء الحياء من حفظ للرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وترك زينة الحياة الدنيا، غير منحصرة أيضا، قال الآبي : «والحياء لا تنحصر آحاده، بدليل أنه لما قال : استحيوا من الله حق حياء، قالوا : إنا نستحي يا رسول الله، قال : ليس ذلك، بل الاستحياء من الله أن تحفظ الرأس وما وعي، والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» الصحيح كما أسلفت وقفه على ابن مسعود وقد يكون هذا هو وجه تخصيص الحياء بالذكر مع دخوله في شعب الإيمان، وهو أنه خصلة لا تنتهي آحادها، وهي تتعدد بتعدد من يتصف بها.

وقيل في وجه تخصيص الحياء بالذكر : إنه الباعث والداعي إلى سائرها، لأن المستحي يخاف فضيحة الدنيا والآخرة، ثم الشُعَبُ ـ وإن كثرت ـ فهي ترجع إلى تكميل النفس، بالطاعة العلمية والعملية، فالعلمية العلم بوجود الله تعالى، وما يجب له وما يستحيل عليه، ويجوز في حقه والعملية الوقوف عند أمره ونهيه.
والعلم بصفات الله هو أساس الحياء، والوقوف عند أمره ونهيه هو ثمرة هذا العلم[2].
وقد قيل في توجيه الحديث «اذا لم تستح فاصنع ما شئت» : إن أفعال الإنسان، إما أن يستحي منها أو لا.

فالأول: يشمل الحرام والمكروه، وتركهما هو المشروع.
والثاني: يشمل الواجب والمندوب والمباح، وفعلهما مشروع في الأولين، جائز في الثالث، فعلى هذا يتضمن الحياء الأحكام الخمسة[3].

---

(١) عون الباري لحل أدلة البخاري، للشيخ أبي الطيب صديق حسن علي الحسيني القنوجي البخاري ج١ ص٩٢.
(٢) شرح الآبي على صحيح مسلم ج١ ص١٣٢.
(٣) مرقاة المفاتيح لعلي بن سلطان القاري ـ شرح مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي ج٤ ص٧٣٧.

اعتراضان وجوابهما :

اعترض بعضهم على جعل الحياء ـ وهو غريزة ـ من الإيمان ـ وهو اكتساب ـ.
وقد أجاب العلماء بإجابات كثيرة، منها :
«أن الحياء جعل من الإيمان المكتسب لأنه يمنع من المعصية كما يمنع منها الإيمان. . .
ولأن استعمال من هو غريزة فيه له على قانون الشرع يفتقر إلى نية وعمل، وقد يتخلق به من لم يجبل عليه، فيلتزم منه ما يوافق الشرع[1].
وعلى هذا فإن الحياء إذا منع من المعصية صار مشابها للإيمان في منعه. قال ابن الأثير : «وإنما جعل الحياء بعض الإيمان، لأن الإيمان ينقسم إلى ائتمار بما أمر الله به، وانتهاء عما نهى الله عنه، فإذا حصل الانتهاء بالحياء كان بعض الإيمان»[2].
وقد علق السنوسي في شرحه على الآبي قائلا :
«قلت : فعلى هذا يكون التعبير بأن الحياء من الإيمان استعارة، لأن العلاقة بينه وبين الإيمان المشابهة، نقله ابن التين، وقال : هو لما منع من المعاصي، وبعث على الطاعة صار الامتناع من المعاصي يزيد في الإيمان، فأطلق اسم الإيمان عليه»[3].
فأما الاعتراض الثاني فعلى الحديثين «الحياء لا يأتي إلا بخير» و «الحياء خير كله» :
ويقوم الاعتراض على «أن الحياء قد يفرط بصاحبه، حتى يمنعه من القيام بحقوق الله تعالى. وهذا لا خير فيه، وقد أجاب ابن الصلاح بأن هذا ليس بحياء حقيقة، وإنما هو خور ومهانة.
قال الآبي : ما تقدم في تفسير الحياء يحقق أنه حياء حقيقة، وإنما الجواب أنه عام مخصوص، إن جعلت الأداة في الحياء للعموم ـ والأداة هي أل ـ وإن لم تجعل للعموم، وإنما للعهد صار المعنى : بعض الحياء لا يأتي إلا بخير، وبعض الحياء لا خير فيه، ويصح الاعتراض إذا جعلت الأداة في الحياء للعموم.
وقد رد السنوسي قول من قال: إن أل في الحياء للعهد بقوله ـ متفقا مع ابن الصلاح ـ قال : قلت : الظاهر أن أل في الحياء للعموم، وأن القضية كلية، ويدل على ذلك تأكيد الخير بكله، وادعاء التخصيص مع التأكيد بكل غير مستقيم عند الجمهور،

---

(١) شرح الآبي لصحيح مسلم، ج١ ص١٣٠ ـ دار الكتب العلمية ببيروت.
(٢) لسان العرب ج١٤ ص٢١٧ ـ دار صادر.
(٣) إكمال إكمال العلم، للإمام أبي عبد الله محمد بن خلفة الوشناني، الآبي، على صحيح مسلم وشرحه مكمل إكمال الإكمال، للشيخ أبي عبد الله محمد بن محمد بن يوسف السنوسي الحسيني، ج١ ص١٣٠.

والمراد بالحياء الحياء الشرعي أو الحقيقي، وهو ما ذهب إليه ابن الصلاح. . وكل فضيلة هي وسط بين طرفين إفراط وتفريط. والحياء فيه طرفان: الإفراط والتفريط . فطرف إفراط الحياء : الخور. وهو الاستحياء من كل شيء.
وطرف تفريطه : الخلاعة. وهي التي لا يستحي صاحبها من شيء، والخور مذموم، لأنه يؤدي إلى ترك الواجب، وعدم الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويمنع من كثير من الخير[1].

(١) المرجع السابق ص١٣٣.

## المبحث الثاني
## ذم الفحش والبذاء

نقيض الحياء: هو البذاء والفحش، والظاهر أن البذاء هو التكلم برديء الكلام، سواء أتناول العورات أو لم يتناولها، فهو عام في كل كلام خرج عن الأدب.
فأما الفحش: فهو خاص فيما يتناول الحديث عن الأعراض والعورات.
وكلا الأمرين مذموم، وقد ذم القرآن من يحبون شيوع الفاحشة.
وحرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وأخبرنا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وأهلك قوم لوط لارتكابهم الفاحشة، كما حفلت السنة بالكثير من الأحاديث التي تذم الفحش والتفحش.

ومن الآيات التي صرحت بتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، واعتبرتها مقابلا للحلال من زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق: تلك الآيات من سورة الأعراف.

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف : ٢٨.

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف : ٣٣.

ومعنى الآيتين «وإذا فعل المشركون فعلة متناهية في القبح، كالشرك، والطواف عراة بالبيت المعظم، واتخاذ البحائر والسوائب، وغير ذلك من الكبائر، فنهوا عنه، احتجوا بتقليد آبائهم، وأن الله تعالى أمرهم بها، فرد الله عليهم بأنه (لا يأمر بالفحشاء) وإنما يأمر بمحاسن الأعمال، ومكارم الأخلاق والخصال، ويأمر بالعدل في الأمور كلها، وبأن تخلصوا له عبادتكم، وتطيعوه في عامة أموركم..
فأما معنى الآية الثانية: فهو إنما حرم ربي كبائر المعاصي والآثام، جهرها وسرها...[1].

---

(١) صفوة البيان للشيخ حسنين مخلوف، ص٢٠٢ : ٢٠٣ ط ثالثة ـ وزارة الأوقاف الكويتية ـ ومختصر تفسير بن كثير بن كثير للصابوني ج١ ص٦١٢، ٦٣٠ وج٢ ص١٦.

وهذا التحريم للفواحش يؤكده النهي عن مجرد الاقتراب منها، فما بالنا بالانغماس فيها، ما ظهر منها وما بطن، فقد قال تعالى ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ الأنعام : ١٥١. وقال ﴿ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ﴾ الأنعام : ١٢٠.

وكأن القرآن بهذا يغلق على النفس البشرية كل ظرف للمعصية ـ سرا كان أو علنا، وقليلا كان أو كثيرا ـ مع عديمات الحياء وعديميه ممن لا يبالون بالفواحش، أو مع الخلائل والأخدان ممن يفعلون ذلك سرا.

فاذا تساءلنا عن سر ذلك التحريم للفواحش بكل صنوفها، جاءنا الجواب النبوي كافيا شافيا، فيما رواه ابن مسعود رضي اله عنه قال : قال رسول اله ﷺ : «لا أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» متفق عليه.

وفي الصحيحين كذلك : قال سعد بن عبادة : لو رأيت مع امرأتي رجلا لضربته بالسيف غير مصفح، فبلغ رسول الله ﷺ فقال : «أتعجبون من غيرة سعد؟ فوالله لأنا أغير من سعد، والله أغير مني، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن» متفق عليه.

كما ذكر القرآن نموذجا لعقاب الله تعالى لمرتكبي ما ينافي الحياء، وهو الفاحشة، فقال تعالى ﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الأعراف : ٨٠ : ٨٤.

وظاهر من السياق القرآني : أن قوم لوط كانوا موغلين في الفحش، قد تأصلت فيهم تلك المعصية المريعة وفي حديثهم الذى ساقته سورة هود يتبدى تفحشهم وبذاؤهم في ردهم على لوط . قال تعالى ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ

كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ هود : ٧٨ : ٧٩.

وفي قوله تعالى ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ : ما يفهم منه أنهم أول من فعل هذه الفاحشة. كما ورد في القرآن الكريم: أن الفحش بصوره المتنوعة من إيحاء الشيطان لأتباعه وتزيينه لهم، وأن الذين يحبون بالتمني أو بالدعوة شيوع الفاحشة لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة.

وقد قال تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ ﴾ النور : ١٩ : ٢١.

ولأجل ما يفعله شيوع الفواحش من قضاء على حياء الجنسين واعتزازهما بشرفهما، وقطع العلائق بينهما وبين يقظة إيمانهما بربهما، أرشدنا ربنا سبحانه وتعالى إلى الاستعانة على وسوسة الشيطان بارتكاب الفواحش والمنكرات، بأداء العبادات، وذكر الله عز وجل على كل حال. يقول تعالى ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ العنكبوت : ٤٥.

ويقول « إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ الأعراف : ٢٠١.

وفي الحديث الشريف : «إن الشيطان ليجرى من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع»[1].

ومن الأحاديث النبوية التي تذم الفحش والبذاء ما يلي :

---

(١) متفق عليه من حديث صفية، دون قوله : فضيقوا مجاريه بالجوع. من تعليق الحافظ العراقي على الإحياء، ج١ ص٢٣٢.

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : «الحياء من الإيمان، والإيمان في الجنة، والبذاء من الجفاء، والجفاء في النار»، رواه أحمد، والترمذي، وابن حبان.

٢ ـ وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : «يا عائشة، لو كان الحياء رجلا كان رجلا صالحا، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»، رواه الطبراني في الصغير والأوسط.

٣ ـ وعن أنس رضي الله عنه. قال : قال رسول الله ﷺ : «ما كان الفحش في شيء إلاشانه، وما كان الحياء في شيء إلا زانه» رواه ابن ماجه، والترمذي.

٤ ـ وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله : «الحياء والإيمان قرناء جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر»، رواه الحاكم والطبراني من حديث ابن عباس.

٥ ـ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : «ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله يبغض الفاحش البذيء»، رواه الترمذي وابن حبان.

٦ ـ وعن عبد الله بن عمر وبن العاص رضي الله عنهما. قال : «لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا، ولا متفحشا، وكان يقول : إن من خياركم أحسنكم أخلاقا» متفق عليه.

وإذا تأملنا الأحاديث النبوية السابقة وجدناها تشير إلى ما يلي :

أ ـ الحياء سبيل إلى الجنة، والبذاء سبيل الى النار.
ب ـ أن الحياء دليل صلاح العمل، والبذاء دليل سوئه.
جـ ـ أن الحياء زين لأصحابه، والفحش شين لهم.
د ـ أن انعدام الحياء من انعدام الإيمان.
هـ ـ أن الله يبغض من لا حياء لهم.
و ـ أن الفاحش بعيد من الرسول الأكرم الذى لم يكن من صفاته الفحش.

ومن الأحاديث التي تصف ترتب الفساد بعضه على بعض، وأن الحياء حين ينعدم فإنه يستتبع كل موبقة، ويصبح عديمه مرتكبا لكل فاحشة، ولربما أدى به ذلك إلى انعدام الإيمان والخروج من دين الإسلام ما روى ابن عمر رضي الله عنهما : أن

النبي ﷺ قال : «إن الله عز وجل إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء، لم تلقه إلا مقيتا ممقتا، فإذا لم تلقه إلا مقيتا ممقتا نزعت منه الأمانة، فإذا نزعت منه الأمانة لم تلقه إلا خائنا مخونا، فإذا لم تلقه الا خائنا مخونا نزعت منه الرحمة، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلقه إلا رجيما ملعنا، فإذا لم تلقه إلا رجيما ملعنا، نزعت منه ربقة الإسلام، «رواه ابن ماجه»[1].

والحديث مع ضعفه، إلا أنه قد ورد في الصحيح ما يشهد لما أشار إليه من أحاديث نزع الحياء والأمانة والرحمة.

وقفة لا بد منها :

هذه الوقفة التي لا بد منها هي : أن الحياء مما أوصت به الشرائع كلها، وأن تاركه يجتريء على فعل كل مخالف لشرائع الله جميعا، لأنها أوصت به على لسان جميع الأنبياء.

روى أبو مسعود عقبة بن عامر الأنصارى البدرى ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت»، رواه البخاري. ومعنى قوله ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى» :أن النبوات واحدة بعد الأخري وعت النصح بالحياء، وأن الناس توارثوه جيلا بعد آخر، حتى وصل إلى عهد محمد ـ ﷺ ـ وقد قال الامام الخطابي : «إن الحياء لم يزل أمره ثابتا، واستعماله واجبا منذ زمان النبوة الأولى، فإنه ما من نبي إلا وقد ندب إلى الحياء، وبعث عليه، وأنه لم ينسخ فيما نسخ من شرائعهم، ولم يبدل فيما بدل منها، وذلك أنه أمر قد عظم صوابه، وبان فضله، واتفقت العقول على حسنه، وما كانت هذه صفته لم يجز عليه النسخ والتبديل[2].

فأما الجزء الأخير من الحديث: وهو قوله ﷺ «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» فقد وجهه العلماء توجيهين :

---

(١) الترغيب والترهيب، ج٣ ص٣١٣ : ٣١٧، وهذا الحديث ضعيف، لأن في إسناده سعيد بن سنان ضعيف، مختلف في اسمه، ج٢ ص١٣٤٧ من سنن ابن ماجه ـ تعليق محمد فؤاد عبد الباقي طبع الحلبي. وخلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجل، للحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي بتحقيق الشيخ محمود عبد اللطيف فايد، ج١ ص٣٨ طـ مكتبة القاهرة.

(٢) بذل المجهود في حل أبي داود، ج١٩ ص٥٣، الشيخ خليل أحمد السهارنفوري، دار الكتب العلمية بيروت.

أولها : أنه ليس بمعنى الأمر أن يصنع ما شاء، ولكنه على معنى الذم، والنهي عنه.
وأهل هذه المقالة لهم طريقان :
أحدهما : أنه أمر بمعنى التهديد والوعيد، والمعنى إذا لم يكن عندك حياء فاعمل ما شئت، فالله يجازيك عليه، وذلك كقوله تعالى : ﴿ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ فصلت : ٤٠.
وقوله : ﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ الزمر : ١٥.

وقوله ﷺ «من باع الخمر فليشقص الخنازير»، رواه أحمد وأبو داود.
يعني ليقطعها، إما لبيعها، أو لأكلها.

وثانيهما: أنه أمر يراد به الخبر: ومعناه: أن من لم يستح صنع ما شاء، فإن المانع من فعل القبائح هو الحياء، فمن لم يكن له حياء انهمك في كل فحشاء ومنكر، وكل ما يمتنع من مثله من له حياء.

فأما القول الثاني: في معنى قوله ﷺ : «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» إنه أمر بفعل ما يشاء على ظاهر أمره، والمعنى ـ إذن ـ إذا كان الذى يريد فعله مما لا يستحي من فعله لا من الله ولا من الناس، لكونه من أفعال الطاعات، أو من جميل الأخلاق والآداب. المستحسنة فاصنع منه حينئذ ما شئت. وعلى هذا مدار الإسلام وتوجيهه.
والقول الأول: قول أبي عبيد، والقاسم بن سلام، وابن قتيبة، ومحمد بن نصر المروزى، وغيرهم، وتظاهره معظم الأحاديث التي أسلفتها.
والقول الثاني: قول جماعة من الأئمة: منهم اسحاق المروزى الشافعي، وحكي مثله عن الإمام أحمد، وأبي داود رحمهم الله جميعا.

قال ابن سيده : من لم يستح صنع ما شاء، على جهة الذم لترك الحياء، وليس يأمره بذلك، ولكنه أمر بمعنى الخبر، فهو يأمر بالحياء ويحث عليه، ويعيب تركه[1].

---

(١) يراجع جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ٢٤٢ : ٢٤٥ باختصار. مكتبة الدعوة الإسلامية ط خامسة ١٩٨٠م. ولسان العرب ج١٤ ص٢١٧، ٢١٩، دار صادر، ومنهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين ص٤١٤ : ٤١٥.

ويعلق الحافظ بن حجر على الحديث بقوله : إن الحياء إذا كان في محرم فهو واجب، وإن كان في مكروه فهو مندوب، وإن كان في مباح فهو العرفي، ويجمع كل ذلك أن المباح إنما هو ما يقع على وفق الشرع إثباتا أو نفيا، فإذا تساءلنا: فأي الرأيين أولى بالقبول؟ هل هو قول القائلين بأنه محمول على الوعيد والذم، أو قول القائلين بأنه أمر بمعنى الخبر؟

جاءنا الجواب بأن حمله على الوعيد أولى، لأن الكلام خرج من النبي ﷺ مخرج الذم لا مخرج المدح. وقد تظاهر الحديث على الوعيد من عدم الحياء، فهذا القول إذن أولى بالقبول من القول الآخر. وإن كان القول الآخير قد وردت بعض الأحاديث بما يضاهيه، وهو أن الإنسان إذا كان جاريا على الصواب في أفعاله، فليفعل ما يشاء.

فأما آثار السلف في ذم انعدام الحياء فكثيرة :

منها قول ابن القيم : وعلى حسب حياة القلب يكون فيه قوة خلق الحياء، وقلة الحياء من موت القلب والروح، فكلما كان القلب أحيا، كان الحياء أتم.

وقول الفضيل بن عياض : خمس من علامات الشقوة: القسوة في القلب، وجمود العين، وقلة الحياء، والرغبة في الدنيا، وطول الأمل[1].

وروي أن حذيفة بن اليمان أتى الجمعة فوجد الناس قد انصرفوا، فتنكب الطريق عن الناس، وقال : لا خير فيمن لا يستحي من الناس.

وقال ابن سلام : العاقل شجاع القلب، والأحمق شجاع الوجه.

ووصف رجل رجلا وقاحا فقال : لو دقت الحجارة بوجهه لرضها، ولو خلا بأستار الكعبة لسرقها.

وأثر عن الصادق رضي الله عنه : من لم يستح عند العيب، ويرعو عند الشيب، ويخشى الله بظهر الغيب، فلا خير فيه.

ورويت أشعار كثيرة في ذم انعدام الحياء منها :

إذا لم تخش عاقبة الليـالي ... ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ... ويبقى العود ما بقى اللحاء

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ج١ ص٣٩٠.

ومنها:

ورب قبيحة ما حال بيني وبين ركوبها إلا الحياء
إذا رزق الفتى وجها وقاحاً تقلب في الأمور كما يشاء.

ومنها:

لو أن لي من جلد وجهك رقعة لجعلت منها حافراً للأشهب

ومنها قول صالح بن عبد القدوس:

إذا قل ماء الوجه قل حياؤه ولا خير في وجه إذا قل ماؤه
حياءك فاحفظه عليك فإنما يدل على فعل الكريم حياؤه

وليس لمن سلب الحياء صاد عن قبيح، ولا زاجر عن محظور، فهو يقدم على ما يشاء، ويأتي ما يهوى[1].

الإنكار على المتهتكين:

في الناس من عنده حياء، ومن لا حياء عنده، فأما من عنده حياء فالمجتمع قد كفي مؤنة إصلاحه، وأما من لا حياء عنده، فعلى المجتمع زرع الحياء في نفسه، ودفعه إلى التخلق به، أو إحياء ما مات منه وإيقاظ ما خمد، حتى يعود الحياء ليؤدى دوره في إصلاح الخلق.

ولا يصح بحال السكوت على من لا يستحيون من المجاهرين بارتكاب المعاصي، لأن هذا قد يجرئهم على نشر جرائمهم، أو يندفع الناس إلى تقليدهم، والإسلام يحاصر المنكر حتى لا يستشري فساده في الناس، ثم تأتي الجوائح حين يغضب رب العزة، فلا تفرق بين قائم على معروف وقائم في منكر.

وقد ذم القرآن بني إسرائيل لعدم تناهيهم عن المنكر فقال تعالى ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ المائدة: ٧٨ : ٧٩.

---

(١) منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين ٤١٣: ٤١٧.

كما صرح الرسول الكريم : بأن المتهتك تارك الحياء يجب الإنكار عليه، وقد جاء في الحديث الشريف : قال رسول الله ﷺ :

«إن العصاة إذا تركوا الحياء وتهتكوا، فلم يغير عليهم، عاقب الله عز وجل العامة والخاصة»[1].

وروى أبو بكر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : إذا ظهر السوء، فلم يغيره الناس، أو شك أن يعمهم الله بعقاب[2].

وقالت أم سلمة رضي الله عنها : «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال الرسول : نعم، إذا ظهر السوء، فلم يغير»[3].

ولا بد من التفرقة إذن بين الحياء والجبن، والحياء والرياء :

أ ـ الفرق بين الحياء والجبن :

الحياء خلق يدفع إليه التقلب في نعم الله، والإحساس بالتقصير في حقه تعالى في علاه، فهو إن كان رؤية للنعم، أو إحساسا بالذنب متجه إلى الله، ومن المعلوم أن المسلم إذا جعل مرضاة الله وجهته صار قويا عزيز الجانب، وإن كان ضعيف الجسم أو قليل النصير، وكيف يهيض الناس جناح من الله معه؟

فأما الجبن فهو خوف من الناس، ورغبة في العافية والسلامة من أذاهم، فهو إذا توجه إلى الناس لا إلى الله، وقد قال تعالى ﴿ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي ﴾، البقرة : ١٥٠

وقال ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾، الأحزاب : ٣٩.

وقال ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾، آل عمران : ١٧٥.

وقد فرق العلماء بين الجبن والحياء :

ففي الحديث الشريف عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «الحياء لا يأتي الا بخير»، متفق عليه.

يقول ابن علان : «وكونه خيرا، أولا يأتي إلا بخير يشكل على بعض الناس،

---

(١) الفتح الرباني ج٤ ص١٩٢.

(٢، ٣) المرجع السابق ج٦ ص٤١٨.

من حيث إن صاحب الحياء قد يمتنع عن أن يواجه بالحق من يستحي منه، فيترك إنكار المنكر عليه، وأمره بالمعروف. وقد يحمله الحياء على الإخلال ببعض الحقوق، وغير ذلك مما هو معروف في العادة، والجواب ما أجاب به ابن الصلاح رحمه الله وغيره، من أن ذلك المانع ليس حياء حقيقيا، وإنما هو عجز وخوف ومهانة.

وتسميته حياء من إطلاق بعض أهل العرف، أطلقوه مجازا، لمشابهته الحياء الحقيقي[1].

فالحياء جرأة في الحق، والجبن قعود عن نصرة دين الله، وشتان بين المجاهدين والقاعدين، والحياء أجلى شعب الإيمان، والجبن والخور أجلى شعب النقصان. والمعيب من الحياء هو الإسراف فيه، حتى يؤدي إلى ضعف صاحبه عن الإقدام على المكرمات، خوفا من الذم، وحيئذ فهو ليس حياء، وإنما ضعف عن قول الحق.

كما أن فعل المسلم الشيء الذى يخالف عقيدته وأخلاقه استحياء من الناس يعد جبنا لا حياء، فإن أولى من يستحيا منه هو رب العزة جلا جلاله.

وفي ذلك يقول الحارث بن أسد المحاسبي «وقد يأتي الرجل الشيء استحياء منه من الخلق، والحياء من الله عز وجل في ذلك أولى، وذلك كالرجل يرى من شيخ مسلم منكرا، فيريد أن ينهاه، فيستحي من شيبته، والحياء من ذى الشيبة، وتوقير الكبير خير.

وخير من ذلك ألا يدع أن ينهاه، ولو كان مستحييا من ذى شيبة، ومع أنه قد روى أبو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من إجلال الله عز وجل إكرام ذى الشيبة المسلم»، رواه أبو داود والترمذى.

إلا أن الحياء من الله عز وجل أولى ألا يضيع الأمر من أن يقوم فيه لله عز وجل، وإن استحيا من ذى الشيبة فليؤثر الحياء من الله عز وجل على الحياء من الخلق، فافهم ما وصفت لك من الحياء، فإن كثيرا من الناس يغلطون في ذلك، ويكذبون على الحياء، ويرون ذلك أنه حياء[2].

---

(١) دليل الفالحين لابن علان ج٣ ص١٤٩ ط مصطفى الحلبي بالقاهرة.
(٢) الرعاية لحقوق الله، للحارث بن أسد المحاسبي ص٢٨٣.

ب ـ الفرق بين الحياء والرياء :

هيئة ما يفعله الرجل حياء، وما يفعله رياء واحدة، ويتمايز الحياء عن الرياء بالنية والناس ـ للوهلة الأولى ـ قد لا يميز معظمهم بين ما يفعل رياء وما يفعل حياء، وفاعل الشيء رياء قد تكون عنده المقدرة على ألا ينكشف أمره، ولكن سرعان ما يكشف الناس حقيقة فاعل الرياء، وكذلك أيضا ينكشف المرائي من قولاته وخطراته، فالحقيقة أنه كما قيل :

ومهما تكن عند امريء من خليقة  وإن خالها تخفى على الناس تعلم.

وبين الحياء في علاقته بفعل الفعل أو تركه، وبين الرياء خيط دقيق، ولا يقدر على تمييز أحدهما عن الآخر إلا أصحاب الإيمان الراسخ، والقلوب المنيرة بأنوار الله، وقد يخيل لفاعل الأمر أو تاركه أنه فعل ما فعل حياء، ولكن حقيقة الدافع تكون هي الرياء، وعدو الله إبليس يقعد للمؤمنين بكل مرصد، وقد حكى القرآن الكريم ذلك فقال تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ الأعراف : ١٦ : ١٧.

وقال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ سورة الحجر : ٣٩ : ٤٢.

وقد نبه أطباء القلوب، وأساة النفوس، وجابرو الأخلاق، إلى صنع إبليس بالمستحيين، فقال الحارث بن أسد : «الحياء غريزة كريمة، فعندها يجد العدو ـ إبليس ـ الدعاء إلى الرياء، فإن أطاعه العبد اعتقد الرياء، واعتل بالحياء، وصدق. قد أهاجه الحياء أولا، ثم خطر له العدو بالرياء فقبله، فكان مرائيا، إذا تنقل من الحياء، إلى الرياء.

وقد يهيجه الحياء على أن يريد الله عز وجل، فيضم إلى الحياء الإخلاص لله عز وجل.

وفعل الشيء حياء لا رياء، أو تركه كذلك خير، لقول النبي الكريم : «الحياء خير كله» . . وكل ما يستحي منه العبد ولا يعقبه رياء، فلا بأس به، كحيائه من وسخ ثوبه، ووسخ جلده، والسواد على ثوبه، وعلى جلده، وما أشبه ذلك فلا بأس به، ما لم يعقب رياء في الدين[1]، فهناك من يستحي من وسخ ثوبه لعدم قدرته على تنظيفه، ومن يترك ثوبه وسخا ليقال : ناسك، أو زاهد. فالأول مستح، والثانى مراءٍ. وهذه التفرقة بين الحياء والجبن والحياء والرياء تستدعي دائما وأبدا أن يكون للمسلم وقفات بينه وبين نفسه، ووقفات بينه وبين الناس، يتبين منها حقيقة توجهه، فإن كان على الحق مضى فيه، وإن كان على الباطل كف عنه، ومن أطرف ما فطن إليه الحارث المحاسبي : «أن رقابة الإنسان على نفسه لرعاية ثمرات عمره لازمة بعد العمل، بعشرات السنين، كما هي لازمة في بدايته ونهايته، فقد يعتقد الإنسان أنه صادق في عمله، وفي تخليص إرادته لله وحده، ويعتقد الناس فيه مثل اعتقاده في نفسه، ولكن جذور الكذب قد تكون كامنة في أعماق النفس، فلا تظهر إلا بعد عشر سنين أو بعد خمسين سنة.

وقال محمد بن علي رضي الله عنه : إن المؤمن وقاف متأنّ، يقف عند همه لله عز وجل، وليس كحاطب ليل. .
وسأل رجل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يوصيه ويعظه فقال : اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته، فإن كان رشدا فأمضه، وإن كان غيا فانته عنه.

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز : لو تفرغت لنا؟ فقال : ذهب الفراغ، فلا فراغ إلا عند الله عز وجل، فأما المستأجرون من أهل الدنيا، فإنما فراغهم من أعمالهم إذا أتموها، وإنما يحكمونها ويستعرضونها بعد فراغهم منها، قبل أن يعرضوها على من استأجرهم، لتكون على ما أراد وأحب.

وأما عمال الله فيتثبتون في أول أعمالهم، ويستعرضونها بعد فراغهم منها، كيف تكون إذا عرضت على خالقهم؟

هل هي كما يرضي بها عنهم؟ وهل أتموها كما أمرهم[2].
والمرء الحيي لا يرضيه مر السنين عليه غير مستح، وإنما يصدع بالاستحياء بين الناس لا يرده عنه صداقة صديق.

(١) الرعاية لحقوق الله، ص٢٨١، ٢٨٢ باختصار ط رابعة ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية بيروت.
(٢) المصدر السابق، ص١٦، ٤٦، ٤٧، ٥٢، ٢٦٧.

وقد ذكر «القاضي يونس بن عبد الله المعروف بابن الصفار رحمه الله في كتابه (التيسير لصالح العمل) : أنه أخبره ثقة من أهل العلم، قال : كان رجل من أهل الأدب له أصحاب تجمعه بهم مجالس مكروهة، فدعوه ذات يوم، فلم يجبهم، فقالوا له : ما يمنعك من إجابتنا؟ فقال : دخلت البارحة في الأربعين. وأنا أستحي من سني، ثم لزم الخير والعبادة[1].

وقال بعض السلف لابنه : إذا دعتك نفسك إلى كبيرة، فارم ببصرك إلى السماء، واستح ممن فيها، فان لم تفعل فارم ببصرك إلى الأرض، واستح ممن فيها، فإن كنت لا ممن في السماء تستحي، ولا ممن في الأرض تستحي، فاعدد نفسك في عداد البهائم[2].

وهكذا يوجب الحياء على صاحبه التوقف والتأني، وتدبر العواقب، وإتيان الرشد، وترك الغي، وأن عباد الله حقا هم الذين يتثبتون في أول الأعمال لا في آخرها، وأن بلوغ الأربعين يدفعهم إلى الحياء من الله، فيغلب الخير على أعمالهم، ويصبح الحياء من الله خلقا لازما لهم.

وأما وقفاته بينه وبين الناس: فلا يرائيهم، ولا يخاف منهم، وليجعل مرضاة الله مقدمة على مرضاة الناس، وليوقن بأن ما أعطاه الناس يأخذه الناس، وما أعطته الأرض تأخذه الأرض، فليبحث عن عواري لا تسترد، ولن يجدها إلا فى عطاء الله عز وجل، ولو كان له صحبة على شر، وبدأ التحول إلى الخير، فإنه ينبغي له ألا يستحي منهم، وإنما ينصحهم، ويبين لهم فساد ما هم مقيمون عليه، ولو كان من الناس من إذا جالسه ضاع وقته، أو فاتته صلاة، أو اغتيب أمامه مسلم، فإنه لا يستحي حين يحين وقت الصلاة أن يقوم لها، ويذكر بها، وحين تذكر الغيبة أن يردها.

ومن وقفاته مع الناس أن يستحي أن يؤثر عنه شر من قول أو من عمل.

---

(١) حكم بن عطاء الله السكندري ج٢ ص٨٦.

(٢) تنبيه الغافلين، للسمرقندي، ص ٢٤٧. دار الرائد العربي ببيروت.

## المبحث الثالث

**أقسام الحياء :**

ينقسم الحياء في حقيقته إلى : غريزى ومكتسب، وينقسم المكتسب إلى : حياء من الله، وحياء من الناس، وحياء من النفس.
كما ينقسم الحياء من حيث المستحي: إلى حيا الله، وحياء رسوله ﷺ، وحياء الخلق.

الحياء الغريزى: والمكتسب :

الحياء الغريزي : هو الهدية المودعة في قلوب العباد منذ وجدوا من لدن ربهم عز وجل، وهو الذى به يتميز لدى الإنسان متى سلمت فطرته الخطأ من الصواب، وعمل البيئة تنبيه الأفراد على أن هذا حسن يؤتى، وهذا قبيح يترك، وعمل الوالدين صيانه الحياء متى اكتشف وجوده لدى الطفل. وهو الذى يقول عنه أبو الحسن البصري الماوردي: «والحياء النفساني : هو الذى خلقه الله تعالى في النفوس كلها : كالحياء من كشف العورات، والجماع بين الناس»[1].
ولا يقتصر وجوده على المسلم دون غيره، لأنه أمر جبلي موجود في الناس جميعا. يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي: «واعلم أن الحياء نوعان : أحدهما : ما كان خلقا وجبلة غير مكتسب، والثاني ما كان مكتسبا، وهو من أجل الأخلاق التي يمنحها الله العبد، ويجبله عليها، وهو يكف عن ارتكاب القبائح، ودناءة الأخلاق، ويحث على استعمال مكارم الأخلاق ومعاليها.
وقد روي عن عمر رضي اله عنه أنه قال : من استحيا اختفى، ومن اختفى اتقى، ومن اتقى وقي. وقال الجراح بن عبد الله الحكمي ـ وكان فارس أهل الشام ـ تركت الذنوب حياء أربعين سنة، ثم أدركني الورع[2].

---

(١) منهاج اليقين، شرح أدب الدنيا والدين ص٤١٢.
(٢) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص٢٤٤ ط خامسة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م ـ مكتبة الدعوة الإسلامية.

والحياء المكتسب: هو ما يأتي من معرفة قدره سبحانه، والخوف منه، والتقلب في نعمه، وأنها لا ينبغي أن توظف في غير طاعته، حتى لا يكون المرء كأجير السوء، يعمل ويؤدي لغير سيده، وهو سبحانه وتعالى رحمن بعباده، معلم لهم أسباب هدايتهم، وخالق لهم في أحسن تقويم، ومكرم لهم على الخلائق كلها، ومستخلفهم في الدنيا، لينظر ماذا يعملون، وهو الذى علمهم البيان، ليحسنوا التعبير عن مكنونات أنفسهم، وهو لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو عالم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يقول تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ الرحمن: ١ : ٤.

ويقول الرسول الكريم: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون[1].

«وهو من أعلى خصال الإيمان، بل هو من أعلى درجات الإحسان..، فإذا سلب العبد الحياء المكتسب والغريزي لم يبق له ما يمنعه من ارتكاب القبيح، والأخلاق الدنيئة، فصار كأنه لا إيمان له[2].

وآثار الحياءين تظهر على الوجه، فتخبر عما يعتمل في باطن الآدمي، وقد قال أبو الحسن البصرى: «اعلم أن الخير والشر معان كامنة، تعرف بسمات دالة عليها، كما قالت العرب في أمثالها: تخبر عن مجهوله مرآته. وكما قال سلم بن عمرو الشاعر:

لا تسأل المرء عن خلائقه ... في وجهه شاهد من الخبر

فسمة الخير: الدعة والحياء، وسمة الشر: القحة والبذاء، وكفى بالحياء خيرا أن يكون على الخير دليلا. وكفى بالقحة والبذاء شرا أن يكونا إلى الشر سبيلا[3].

والحياء الغريزي من إشراق نور الله على القلب المسلم.

أقسام الحياء من حيث المستحى منه:

ما يستحى منه: إما أن يكون الله عز وجل، أو الناس، أوالنفس:

---

(١) رواه مسلم، والنسائي ـ الترغيب والترهيب، ج٤ ص٨٨ طـ أوقاف مصر.
(٢) المرجع الأسبق نفس الصفحة.
(٣) منهاج اليقين ص٤١٢.

وقد يطلق عليها العلماء أنها أقسام الحياء من ناحية متعلقه، وأنه لا يكمل في قلب امريء إلا بوجود ثلاثتها جميعا، وأنها متلازمة. فإن معالم الحلال والحرام، وقبول العمل أو رفضه محتاجة إلى الإيمان بالله، وامتثال شرعه، وميدان ذلك الإيمان: هو الأنفس: لوامة كانت، أو مطمئنة، أو أمارة، ومجاله: هو السلوك أمام الناس، إما بالخير وإما بالشر.

«ولا بد من هذه الأوجه الثلاثة لكي يكمل الحياء، ويتحقق على وجهه التام، لأن من استحيا من الله تعالى، ولم يستح من الناس، فقد استهان بالناس، ومن استحيا من الناس، ولم يستح من الله، فقد استهان بالله جل جلاله، ومن استحيا من الناس، ولم يستح من نفسه هانت عليه نفسه، ومن هانت عليه نفسه لم يكن أهلا لمكارم الأخلاق.. لأن المرء إذا استحيا من نفسه فهو من غيره يكون أشد استحياء»[1].

الحياء من الله:

هو أثر رؤية الآلاء، ورؤية التقصير، فيتولد منها ما يسمى بالحياء، فيبعث صاحبه على عمل الحسن وترك القبيح، وهو ما يستدام به إنعام الله على عباده، بدءًا من شربه الماء إلى أقصى ما تطمح إليه نفوس البشر أجمعين، والحياء من الله درجات يفضل بعضها بعضا، وأولاها (حياء الرقابة)، وقد تحدث عنه ابن عطاء السكندري بقوله: «من لم يعرف قدر النعم بوجدانها، عرفها بوجود فقدانها»، ويقول شارح الحكم: أكثر الناس لا يعرفون قدر النعم إلا إذا فقدوها، وذلك لأجل غلبة الغفلة عليهم حين وجودها عندهم.

قال سري السقطي رحمه الله: من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم.

وقال الفضيل رحمه الله: عليكم بمداومة الشكر على النعم، فقل نعمة زالت عن قوم فعادت إليهم.

وقال بعض البلغاء: إذا كانت النعمة وسيمة، فاجعل الشكر لها تميمة.

ومن دعاء بعض الصالحين: اللهم عرفنا نعمتك بدوامها، ولا تعرفها لنا بزوالها[2].

---

(١) موسوعة أخلاق القرآن ج١ ص ٩١ ) ٩٢.

(٢) حكم بن عطاء الله، ج٢ ص ٨٧ مع شرحها غيث المواهب العلية للرندي، تحقيق د. عبد الحليم محمود ـ د. محمود بن الشريف ـ دار الكتب الحديثة.

وهذه الرؤية للآلاء، والرؤية للتقصير، هي كما يرى الإمام الغزالي : (حالة للقلب يثمرها نوع من المعرفة، فتثمر بدورها أعمالا في الجوارح وفي القلب).
أما الحالة : فهي مراعاة القلب للرقيب، واشتغاله به، والتفاته إليه، وملاحظته إياه، وانصرافه إليه.

وأما المعرفة التي تثمر هذه الحالة : فهي العلم بأن الله مطلع على الضمائر، عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف، كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف، بل أشد من ذلك.
فهذه المعرفة إذا صارت يقينا استولت على القلب، فاستجرته إلى مراعاة جانب الرقيب، وصرفت همه إليه[1].
وهذا الحياء هو الذى سماه الإمام الغزالي، والإمام ابن القيم : حياء الرقابة، وهي درجة دنيا، ويضيف إليها الإمام ابن القيم درجتين أعلى منها شأنا، فيقول :
ثانيتها : «وأرفع منه درجة الاستقباح الحاصل عن المحبة، فإذا كان حياء الرقابة يجذب صاحبه إلى احتمال أعباء الطاعة، فإن حياء المحبة يجعل المحب يستقبح المخالفة أتم من استقباح الخائف، ولذلك فإن هذا الحياء يكف العبد أن يشتكي لغير الله، فيكون قد شكا الله إلى خلقه.
ثالثتها : وهناك درجة أخرى من درجات الحياء من الله، وهي : حياء الإبطاء في التشمير. وهو يتولد من النظر في علم القرب، فيدعو صاحبه إلى سلوك طريق المحبة، ويربط روحه بروح الأنس، ويكره إليه ملابسة الخلق.
والنظر في علم القرب هو تحقق القلب بالمعية الخاصة مع الله، فإن المعية نوعان :
عامة : وهي معية العلم والاحاطة، كما في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد : ٤.
وخاصة : وهي معية القرب كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ النحل : ١٢٨.
ومعية القرب تتضمن الموالاة، والنصر، والحفظ، وكلا المعنيين مصاحبة منه سبحانه وتعالى للعبد.

لكن الأولى مصاحبة إطلاع وإحاطة، والثانية مصاحبة موالاة ونصر وإعانة.

---

(١) الإحياء ج٤ ص ٣٩٨.

وقربه سبحانه وتعالى قربان : قرب من داعيه بالإجابة، وقرب من عابده بالإنابة.

فالأول في الآية الكريمة ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ البقرة : ١٨٦.

والثاني كقوله ﷺ : «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»، رواه مسلم. فهذا قربه من أهل طاعته[1].

وقرب العبد إلى ربه بالسجود هذا يشير إليه حديث معدان بن أبي طلحة رضي الله عنه قال : لقيت ثوبان مولى رسول الله ﷺ، فقلت : أخبرني بعمل أعمله يدخلني الله به الجنة، أو قال : قلت : بأحب الأعمال إلى الله، فسكت، ثم سألته فسكت، ثم سألته الثالثة فقال : سألت عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : «عليك بكثرة السجود، فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة» رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه[2].

الحياء من الله أنواع

للمستحيين حالات يختلف فيها كل مستح عن الآخر، فلدى كل منا ما يدفعه إلى الاستحياء من الله عز وجل، ومن تلك الأقسام :

١ ـ حياء الجناية : وهو الندم الذى يحيط بمن يخالف أمر الجليل سبحانه وتعالى، اذا استيقظت نفسه اللوامة، فسالت دموعه مدرارا، وصوت القرآن يرن في أذنيه بقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴾[3]

وبقوله تعالى ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾[4].

---

(١) مدارج السالكين، ج١ ص ٣٩١ : ٣٩٢ بتصرف.
(٢) الترغيب والترهيب، ج١ ص ١٦٦ ط أوقاف مصر.
(٣) الانفطار : ٦ : ٧.
(٤) البلد : ٤ : ١٠.

ومنه : حياء آدم عليه السلام لما فر هاربا في الجنة، قال الله تعالى : أفرارا مني يا آدم؟ قال : لا يا رب، بل حياء منك.

٢ ـ حياء التقصير: وهو حياء من يرى أن ربه يستحق منه أن يقوم بأقصى ما يستطيع من جهد في العبادة، فيفعل، ومع ذلك يرى أنه ما زال على القيام بشكر ربه مقصرا.

ومنه : حياء الملائكة الذين يسبحون الليل والنهار ولا يفترون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. فإذا كان يوم القيامة قالوا : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك.

٣ ـ حياء الإجلال: وهو حياء المعرفة، وعلى حسب معرفة العبد بربه يكون حياؤه منه.

٤ ـ حياء الاستحقار واستصغار النفس: كحياء العبد من ربه عز وجل حين يسأله حوائجه احتقارا لشأن نفسه، واستصغارا لها، وقد يكون لهذا النوع سببان :

أحدهما : استحقار السائل نفسه، واستعظام ذنوبه وخطاياه.

والثاني : استعظام شأن مسئوله وهو الله عز وجل.

٥ ـ حياء العبودية: وهو ممتزج من محبة وخوف، ومشاهدة عدم صلاح عبوديته لمعبوده، وأن قدره أعلى وأجل منها، فعبوديته له توجب استحياءه منه لا محاله[1].

٦ ـ حياء النعمة: وهو عدم استغلالها فيما يغضب المنعم : كنعمة المال ونعمة الصحة.

الحياء من النفس :

هو دليل على تمكن العفة من نفس صاحبه، وحرصه على ألا يصدر منه إلا الكمال، ورغبته في أن يكون عمله في السر كعمله في العلن، فهذا دليل على احترامه لنفسه، وعنه يقول الامام ابن القيم : «وهو حياء النفوس الشريفة العزيزة الرفيعة، من رضاها لنفسها بالنقص، وقناعتها بالدون، فيجد نفسه مستحييا من نفسه، حتى لكأن له نفسين، يستحي بإحداهما من الأخرى، وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحى من نفسه، فهو بأن يستحي من غيره أجدر»[2].

والمجتمع الذى يوجد فيه أفراد من هذا القبيل لا شك أنه يستحق الرقي في الدنيا

---

(١) راجع مدارج السالكين، ج١ ص٣٩ دار الوفا بالمنصورة، بتصرف.

(٢) مدارج السالكين، ج١ ص٣٩٠.

ورضوان الله في الآخرة، وهل هناك أفضل من تساوي السر والعلن، ومتى نصب الإنسان من نفسه حكما على نفسه ابتعد عن سفساف الأمور ومحتقراتها، فحقق تقوى الله حيثما كان، وأتبع السيئة بالحسنة، لتبقى ساحته نظيفة مما يكدر علاقته بربه.

يقول الإمام الماوردى: «وأما حياؤه من نفسه، فيكون بالعفة، وصيانة الخلوات».
ويعلق الشارح قائلا: وفي حديث أسامة عند الترمذى: ما كرهت أن يراه الناس منك فلا تفعله بنفسك إذا خلوت.
وقال بعض الحكماء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك.
وقال بعض الأدباء: من عمل في السر عملا يستحي منه في العلانية فليس لنفسه عنده قدر.
قال الشاعر:

فسرِّي كإعلاني وتلك خليقتي  وظلمة ليلي مثل ضوء نهاري

وهذا النوع من الحياء قد يكون من فضيلة النفس، وحسن السريرة، فمتى كمل حياء الإنسان من وجوهه الثلاثة، فقد كملت فيه أسباب الخير، وانتفت عنه أسباب الشر، وصار بالفضل مشهورا، وبالجميل مذكورا.

قال الشاعر:

واني ليثنيني عن الجهل والخنا  وعن شتم ذي القربى خلائق أربع
حياء وإسلام وتقوى وأنني  كريم ومثلي من يضر وينفع

وإن أخل بأحد وجوه الحياء لحقه من النقص بإخلاله بقدر ما كان يلحقه من الفضل بكماله[1].
ومن الحياء من النفس: حياء الشرف والعزة. وهو حياء النفس العظيمة الكبيرة، إذا صدر منها ما هو دون قدرها، من بذل، أو عطاء أو إحسان، فإنه يستحي مع بذله له، حياء شرف نفس وعزة، وهذا له سببان:
أحدهما: هذا.

---

(١) منهاج اليقين شرح أدب الدنيا والدين، ص٤١٧.

والثاني : استحياؤه من الآخذ، حتى كأنه هو الآخذ السائل، وإن بعض أهل الكرم لا تطاوعه نفسه بمواجهته لمن يعطيه حياء منه، لأنه يستحي من خجلة الآخذ[1]. وقد كان بعضهم يضع العطية في يده، ويخفضها حتى تكون يد الآخذ هي العليا.

الحياء من الناس :

الناس في أي مجتمع إما أنهم يتبعون دينا واحدا، أو أديانا متعددة، ولهم عادات وتقاليد بعضها يستند إلى دين، وبعضها إلى التقاليد والأعراف الاجتماعية، وكل منهم ينبغي أن يكون مرآة لما يعتنقه من فضائل دينية، أو اجتماعية، ويغلب على الناس احترام دين وتقاليد المجتمع الذى يعيشون فيه.

وعندنا معشر المسلمين ينبغي على كل مسلم ألا يخرج على دين ربه سبحانه وتعالى، فأما الصفيق البليد الحس الذى لا يبالي بنظرات الاستهجان والاستنكار فيستحق قول القائل :

لو أن لي من جلد وجهك رقعة  لجعلت منها حافرا للأشهب

والثقلاء مذمومون، دينا وعرفا. وقد اعتبرت الآية الكريمة ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ الأحزاب :٥٣. من أشد الآيات ذما للثقلاء. الذين يدخلون بلا إذن، ويجلسون بلا غاية ، يؤذون خلق الله. وقد ذمت السنة المشرفة من يهتك ستر نفسه، ويجاهر بعمل المعاصي.

روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «كل أمتي معافي إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول : يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه».

---

(١) المرجع السابق ص٣٩١.

ومعافى : أي يعفى عن ذنوبهم ولا يؤاخذون بها، والمجاهرون : المعلنون بالفسق، لاستخفافهم بحق الله تعالى، ورسوله، وصالح المؤمنين.
والمجانة : عدم المبالاة بالقول والفعل[1].
وقد حرم الإسلام الغيبة، ولكن إذا جاهر العبد بالفسق على قوارع الطرقات، وافتخر بارتكابه للرذائل هل تعد غيبته جرما؟ يجيبنا على هذا التساؤل الإمام الغزالي فيقول ـ وهو يعدد من لا غيبة لهم :
السادس : أن يكون مجاهرا بالفسق : كالمخنث، وصاحب الماخور، والمجاهر بشرب الخمر، واغتصاب أموال الناس، أو من يتظاهر بذلك، ولا يستنكف من أن يذكر به، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به، فلا إثم عليك...

قال عمر رضي الله عن : ليس لفاجر حرمة، وأراد به المجاهر بفسقه، دون المستتر، إذ المستتر لا بد من مراعاة حرمته.

وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن البصرى : الرجل الفاسق المعلن بفجوره، ذكري له بما فيه غيبة له؟ قال : لا، ولا كرامة.
وقال الحسن البصرى : ثلاث لا غيبة لهم : صاحب الهوى، والفاسق المعلن بفسوقه، والإمام الجائر.
فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به، وربما يتفاخرون به.
فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره؟ نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم[2].
ومن الحياء من الناس : حياء الكرم، كحيائه ﷺ من القوم الذين دعاهم إلى وليمة زينب، وطولوا بالجلوس عنده. فقام واستحيا أن يقول لهم : انصرفوا.
والحديث متفق عليه.
ومنه : حياء الحشمة، كحياء علي بن أبي طالب أن يسأل رسول الله ﷺ عن حكم المذي، لمكان ابنته منه.
ومنه : حياء المحب من محبوبه، حتى إنه إذا خطر على قلبه في غيبته هاج الحياء من قلبه، وأحس به في وجهه، ولا يدري ما سببه، وكذلك يعرض للمحب عند ملاقاة محبوبه. ومفاجأته له : روعة شديدة، وسببه مما لا يعرفه الناس[3].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، رقم ١٨٨٣.
(٢) الإحياء، ج٣ ص١٥٣.
(٣) مدارج السالكين، ج١ ص٣٩١.

ومما يلحق بحياء الحشمة : تجنب التعري أمام الناس والنظر إلى العورات.
وقد تجنبه الصحابة ولعنوا فاعله، وحرموا دخول الحمام إلا بمئزر، ودعوا إلى غض البصر، والتواري عن أعين الناس.
فعن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال : «لا يتناجي اثنان على غائطهما، ينظر كل واحد منهما إلى عورة صاحبه، فإن الله يمقت على ذلك رواه أبو داود، وابن ماجه، وابن خزيمة. وروى جابر رضي الله عنه قال : «خرجنا مع النبي ﷺ في سفر، فكان لا يأتي البراز حتى يغيب فلا يرى» رواه ابن ماجه.

وعن النبي ﷺ : لا يحل لأحد أن يدخل الحمام إلا بمئزر. . رواه الترمذي، والنسائي، والحاكم.
وعن عطاء رضي الله عنه أنه قال : مر النبي ﷺ برجل يغتسل، فقال : يا أيها الناس، إن الله حيي حليم ستير، ويحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي[1].
وكذلك المرأة : فقد روت عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحمام حرام على نساء أمتي» رواه الحاكم، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد. وروى مثله النسائي، والترمذى، وابن ماجه، وغيرهم.
ويقول الليث السمرقندي : «فأما الحياء الذى بينك وبين الناس، فأن تغض بصرك عما لا يحل لك».
وروى بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده قال : قلت : يا رسول الله، عورتنا، ما نأتي منها وما نذر؟
قال : «احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك، قال : يا رسول الله، أرأيت ان كان أحدنا خاليا؟ قال : فالله أحق أن يستحيا منه[2]» أخرجه الأربعة، وحسنه الترمذى، وصححه الحاكم[3].
وقد رأى الرسول الكريم جماعة من الصحابة يلعبون، وقد تعروا من أزرهم فغضب منهم غضبا شديدا، وسبح ربه تسبيح المغضب الحانق، وأنه طلب منه أن يستغفر لهم، فلم يفعل إلا بعد جهد شديد.

---

(١) فيض القدير على الجامع الصغير للمناوي، ج٢ ص٢٢٨ طـ ثالثة ١٩٧٢م دار المعرفة.
(٢) تنبيه الغافلين لليث السمرقندي، ٢٤٦ : ٢٤٧ دار الرائد العربي ـ بيروت.
(٣) الفتح الرباني، للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ج٣ ص٨٧.

فعن عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدى: أنه مر وصاحب له، وفتية من قريش قد حلوا أزرهم فجعلوها مخاريق، يجتلدون بها، وهم عراة.
قال عبد الله ) فلما مررنا بهم قالوا : إن هؤلاء قسيسون، فدعوهم :
ثم إن رسول الله ﷺ خرج عليهم، فلما أبصروه تبددوا. فرجع رسول الله ﷺ مغضبا، حتى دخل، وكنت وراء الحجرة، فسمعته يقول : «سبحان الله، لا من الله استحيوا، ولا من رسوله استتروا» وأم أيمن عنده تقول : استغفر لهم يا رسول الله، فبلأى ما استغفر لهم.
رواه أحمد، وأبو يعلى، قال : قال عبد الله ـ يعني ابن الحارث ـ : فتأبي ما ستغفر لهم[1].
ومن الحياء من الناس: الحياء في الطعام. وهذا يستدعي ألا يبتديء الصغير بالطعام، ومعه من يستحق التكريم : بكبر سن أو زيادة فضل، إلا أن يكون هو المتبوع.

كما يوجب ألا ينظر صاحب الطعام إلى أصحابه ولا يراقبهم أثناءه فيستحيون، وإنما يغض عنهم بصره، ولا يتم قبلهم، فذلك يجعلهم يستحيون فيقومون قبل أن يشبعوا، ويمد يده ويقبضها، ويتناول قليلا قليلا، إلى أن يستوفوا. . .
ولا يلطخ ثيابه ولحيته، أو يأكل بأصابعه الخمسة، أو يتناول أطايبه من أمام الناس من هنا وهناك، أو يجعل زيارته للناس وقت طعامهم، فهذا كله مذموم عقلا وعرفا وشرعا.

ففي الصحيح عن عمر بن أبي سلمة: «وكل مما يليك» متفق عليه.
ومن الحياء من الناس: الحياء من الكبير والمعلم، واحترامهم وعن اكرام الكبير يروى أنس عن النبي ﷺ قوله :
«ما أكرم شاب شيخا إلا قيض الله له من يكرمه عند كبر سنه».
رواه الترمذي مرفوعا وقال : «غريب، وقد حسنه، وتعقبه المناوى بأنه منكر، لأن يزيد بن بيان وشيخه أبا السرحان صعيفان»[2].

---

(١) رواه البزار، والطبراني، وأحد إسنادي الطبراني ثقفات.
مجمع الزوائد لابن حجر الهيثمي، ج٧ ص٢٧، دار الكتاب العربي، طـ ثالثة ١٩٨٢م.
(٢) الأشبه أنه من كلام الحسن البصري. كشف الخفاء ج٢ ص٢٣٣ : ٢٣٤.

وأما الحياء من المعلم وتوقيره : فقد روى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال : «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقه»[1].

وقد كان مسلك الصحابة في التأدب مع العلماء عجبا. وقد ورد أن ابن عباس مكث سنتين يستحي أن يسأل عمر رضي الله عنه في مسألة، حتى حانت فرصة للسؤال فسأله[2].

كما حكي عن الشافعي أنه كان يتصفح الورقة بين يدى مالك برقة، هيبة له، وروي عن الربيع قوله : والله ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلي هيبة له[3].

ومما يتعلق بالحياء من المعلم : إقبال الطالب على السؤال، وعدم استحيائه من كشف جهله، لأنه لو لم يكن كذلك لم يتعلم. قال مجاهد رحمه الله : «لا يتعلم العلم مستحٍ ولا متكبر» (البخاري).

أقسام الحياء من حيث المستحي

المستحى هو من قام به الحياء، أو تخلق به، والحياء إما أن يكون منسوبا إلى الله تعالى، أو إلى الرسول الكريم، أو إلى آحاد المسلمين،

فأما حياء الله تعالى :

فقد ورد في القرآن الكريم الإخبار عن الله جل وعلا بأنه : «لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها» وورد في السنة المشرفة : أن الله عز وجل يستحي أن يعذب ذا الشيبة المسلم، وأنه سبحانه وتعالى يستحي إذا دعاه العبد أن يرد يديه صفرا.

فأما الآية القرآنية التي أخبرت عما أشرت إليه فهي قوله تعالى ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ البقرة : ٢٦.

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) راجع جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، ج١ ص١٣٥.

(٣) يراجع المجموع شرح المهذب، ج١ ص٣٦ : ٣٧.

وواضح من الآية أن هذا المثل قد آمن به المؤمنون، وعلموا أنه حق من لدن خالقهم، وأما أهل الكفر فلم يعجبهم ضرب الأمثال بالبعوض والذباب والعنكبوت، وتساءلوا مستهزئين عن المراد بها، وقد كشفت الآية الكريمة عن إضلال كثير من الناس وهداية كثير منهم بهذا المثل، وأن الذين ضلوا هم الخارجون عن دين الله سبحانه.

وقد ذكر الإمام الطبرى في سبب نزول تلك الآية الكريمة ما يلي :

يقول «حدثني موسى بن هارون بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما، وعن مرة، عن ابن مسعود، وناس من أصحاب النبي ﷺ : لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعني قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا**﴾ وقوله : ﴿**أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق، يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت**﴾ الآيات الثلاث، قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال، فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا . . .﴾ إلى قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ البقرة : ٢٦ : ٢٧.

وروي عن قتادة بسنده : إن الله لا يستحي من الحق أن يذكر شيئا منه قل أو كثر. . ثم ذكر أن معنى «بعوضة فما فوقها» «أي فما أعظم منها أو ما أصغر منها»[1].

ويمكن أن يراد بالاستحياء في الآية ظاهره، ولكن على ضوء القاعدة القرآنية : «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ»[2] وقول القائل : كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك. فهو يستحي، ولكنه سبحانه وتعالى أعلم بكيفية ذلك الاستحياء، أليس الاستحياء كمالا؟ وهو سبحانه يجب له كل كمال ، كما يمكن أن يراد بالاستحياء الخشية، فيكون معنى لا يستحي أى لا يخشى، أو يكون المراد لازم الاستحياء، وهو الترك، أولا يستحي، أي لا يمتنع.

وببعض ما أشرت إليه صرح الإمام الطبري بقوله : «وبعض المنسوبين إلى المعرفة بلغة العرب كان يتأول معنى «إن الله لا يستحي» بأن الله لا يخشى، ويستشهد بقوله تعالى : «وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ»[3].

---

(١) تفسير الطبري، ج١ ص١٣٨، ١٣٩ دار المعرفة ١٩٨٣م.

(٢) الشورى : ١١

(٣) الأحزاب : ٣٦.

ويزعم أن معنى ذلك : وتستحي الناس، والله أحق أن تستحيه. فيقول : الاستحياء بمعنى الخشية، والخشية بمعنى الاستحياء، ويمكن أن يقال : إن المراد بأن الله لا يستحي لازم الحياء، وهو الترك، فالله لا يترك شيئا يضرب به المثل عظم أو حقر، لأنه منزه عن أن يلام من غيره، فأما الحياء بمعنى الترك حذرا من اللوم، فهو محال عليه سبحانه وتعالى[1].

وقوله تعالى : «فما فوقها» يفهم منه بعمومه فما فوقها في الكبر، أو فما فوقها في الصغر.
والذين أشار إليهم ابن جرير بأنهم بعض المنسوبين إلى العربية، صرح الإمام ابن كثير بأنهم : الكسائي والفراء[2].
وبأن الاستحياء يحتمل تأويلات ثلاثة: هي عدم الترك، أو عدم الخشية، أو عدم الامتناع، قال أبو الحسن البصرى الماوردى في تفسيره[3] :
وعند التأمل في القول بالتأويلات الثلاثة السابقة، فإننا نجد أنه لا تنافي بين تلك التأويلات وبين الحياء، على أنه مكافأة المحسن، والاعتراف بحق ذي الحق، فإن المستحي من الله أو من غيره يخشاه ويترك ما لا يحب، ويمتنع عن فعل ما لا يوافق شرعه سبحانه وتعالى، والله سبحانه يستحي من عباده أن يفعلوا المعروف ولا يكافئهم عليه، ويوجب مكافأة العباد على نفسه، وحاشاه أن يوجب عليه أحد شيئا على حد قول القائل :

وإني إن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

وإلى الحكمة من ضرب الأمثال بهذه الكائنات الصغيرة، مع الإشارة إلى مذهب السلف والخلف فيما يوهم تشبيه الله بعباده يشير الشيخ حسنين مخلوف بقوله : «وليس الحياء بمانع لله تعالى من ضرب الأمثال بهذه المخلوقات الحقيرة الصغيرة في نظركم، كالبعوض والذباب والعنكبوت، فإن فيها من دلائل القدرة، وبدائع الصنعة، ما تحار فيه العقول، ويشهد بحكمة لخالق.
وقد جعلوا ضرب المثل بها ذريعة إلى إنكار كون القرآن من عند الله تعالى، وفي الآية إشعار بصحة نسبة الحياء إلى الله تعالى.
ومذهب السلف : إمرار هذا وأمثاله على ما ورد، وتفويض علم كنهه وكيفيته إلى الله

---

(١) المرجع السابق ص١٣٨ : ١٣٩.
(٢) راجع مختصر تفسير ابن كثير، ج١ ص٤٥.
(٣) راجع النكت والعيون ج١ ص٧٩ ؛ ٨٠.

تعالى، مع وجوب تنزيهه عما لا يليق بجلاله من صفات المحدثات، واختاره الآلوسي.

وذهب جمع من المفسرين إلى تأويله ـ أى الحياء ـ بإرادة لازمه، وهو ترك ضرب الأمثال بتلك المخلوقات الصغيرة، لأن الاستحياء كتغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يعاب به، أو كانقباض النفس من القبائح محال في حقه تعالى، فيصرف اللفظ إلى لازم معناه، وهو الترك[1].

وأما حياء الله تعالى في السنة فقد وردت فيه أحاديث كثيرة، منها :

قوله ﷺ: «إن الله تعالى حيي ستير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر» رواه أحمد.

وقوله ﷺ : «إن الله تعالى حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفرا»[3].

ووصف الله سبحانه وتعالى بالحياء معناه: ترك الفعل القبيح، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم : «وأما حياء الرب تعالى من عبده، فذلك نوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول، فإنه حياء كرم وجود وجلال»..

يقول يحيى بن معاذ : من استحيا من الله مطيعا، استحيا الله منه وهو مذنب..

ويفسر ابن القيم ذلك بقوله :

«من غلب عليه خلق الحياء من الله تعالى، حتى في حال طاعته، فقلبه مطرق بين يديه إطراق مستح خجل، فإنه إذا واقع ذنبا استحيا الله عز وجل من نظره إليه نظرة مقت، لكرامته عليه»[4].

حياء الرسول الأكرم ﷺ :

الرسول الكريم قدوة، والقدوة حري بالكمال، ليكمل به غيره، وقد روى أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه قال : «كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها. ومعنى الحديث: وفور الحياء لدى الرسول الكريم أكثر من وفوره في

---

(١) ص١٠ من صفوة البيان، للشيخ حسنين مخلوف، ط ثالثة ١٩٨٧م وزارة الأوقاف الكويتية.

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والترمذى، والحاكم.

ص٤٠ من تمييز الطيب من الخبيث، لابن الديبع الشيباني، ط صبيح بالقاهرة.

(٣) كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلوني، ج١ ص٢٨٤ مؤسسة الرسالة.

(٤) باختصار شديد نقلا عن موسوعة أخلاق القرآن الكريم ـ د. أحمد الشرباصي ج١ ص٩٣ : ٩٤.

العذراء إذا خلت بنفسها في مكان سترها، لأنها في الخلوة يشتد حياؤها أكثر مما تكون خارجة عنه، لكون الخلوة مظنة وقوع الفعل بها»[1].

ويضيف الإمام ابن حجر: «والظاهر أن المراد تقييده بما إذا دخل عليها في خدرها أحد، لا حيث تكون منفردة فيه»[2].

وهذا الحياء الذى وصف به الرسول الكريم يشمل عدة مكارم، ترجع كلها إلى الحياء. منها:

أ ـ أنه ﷺ كان يجيب دعوة العبد والحر، ويقبل الهدية ويكافيء عليها مهما صغرت، فإن الحيي إذا دعاه من هو مثله، أو أدنى منه، أو أهداه، استحيا أن يرفض الدعوة، أو يرد الهدية، لما في طبعه الكريم من المحافظة على إدخال السرور على قلب من تعامل معه.

ب ـ وقد جاء في وصف الرسول الكريم: أنه ليس صخابا في الأسواق، ولا فظ الطبع، لأن الصخب دليل على برود الطبع، وسوء الخلق، وهو دليل على عدم التهذيب، والأفراد والمجتمعات يعرف أدبها من عدمه بآداب المتحدثين منها، كما أن فظاظة الطبع دليل على رقة التدين والأنانية، فالرحمة لا تنزع إلا من شقي، ومن لا يرحم الناس لا يرحمه الله.

جـ ـ كما أن من حيائه ﷺ: أنه كان لا يقطع كلام محدثه، وإنما يتركه حتى ينتهي مما يريده، ومن أمسك بيده لا ينزعها منه، حتى يكون هو الذى ينزعها، فإن قاطع كلام محدثه، ونازع يده من يد الغير ربما يظن به ذلك الغير عدم الاعتناء به، وذلك ينافي القيام بالدعوة إلى دين الله.

د ـ وكان عليه الصلاة والسلام يخفف صلاته إذا أقبل إليه أحد، فربما كان محتاجا يستحي من بسط حاجته، فكان عليه الصلاة والسلام يستحي من تركه جالسا دون إقبال عليه.

هـ ـ ومن حيائه: أنه كان لا يمد رجليه بين أصحابه، ولا يضع رجلا على رجلا، حتى لا يضيق بهما على أحد، إلا أن يكون المكان واسعا، لا ضيق فيه.

و ـ فأما حياؤه في الكلام، فقد كان سمح المقالة، ليس بمهذار، وكان قليل الكلام، لا فاحشا، ولا متفحشا، ولا يقول المنكر وهجر الكلام.

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، لمحمد فؤاد عبد الباقي، ص٦١١ وزارة الأوقاف الكويتية ١٩٧٧م.

(٢) فتح الباري لابن حجر، ج٧ ص٣٨٧ طـ مصطفى الحلبي.

ز ـ فأما حياؤه في الطعام، فقد كان يأكل مما يليه، بثلاثة أصابع فقط، ولا يدع شهوة الطعام تغلبه حتى يمتلىء بطنه.

ح ـ وكان حياؤه هذا داخل بيته وخارجه، فظاهره كباطنه، وسره كعلنه، وبعض الناس يختلف ظاهرهم عن باطنهم، ويكونون داخل بيوتهم على هيئة، وخارجها على هيئة أخرى، وقد قيل: المجتمع كحفلة الرقص المقنعة، يخفي فيها كل إنسان شخصيته، ولا يكشف عنها إلا في بيته.

وقد وصف الله رسوله في كتابه بالحياء. فقال تعالى في كتابه الكريم:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ الأحزاب: ٥٣.

وقد أخرج ابن حميد، وأحمد، والبخارى، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه، وابن المنذر، وغيرهم، من طرق، عن أنس رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش ـ رضي الله عنها ـ دعا القوم، فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام، فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام. فلما قام قام من قام، وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل، فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت، فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا. فجاء، حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقي الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي. . . . . الخ**﴾[1].

ويذكر ابن عباس رضي الله عنهما: أن ناسا كانوا يتحينون طعامه عليه الصلاة والسلام، فيدخلون عليه قبل الطعام إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون، وكان يتأذى بهم، فنزلت[2].

وهذا تأديب للثقلاء ممن يضايقون بسلوكهم الرسول الكريم، وتنبيه للغافلين،

---

(١) الدر المنثور للإمام السيوطي، ج٥ ص٢١٣ طـ دار الفكر.

(٢) البحر المحيط لأبي حيان التوحيدى، ج٧ ص٢٤٦. مكتبة النصر الجديدة بالرياض.

ليدركوا أن مقام الرسول الأكرم أعلى من أن يشغل بتفرج بعضهم بالأحاديث، وهذا التأديب يشمل كونه خارج بيته أو داخله، يقول النيسابورى :

«والآية ناهية للثقلاء أن يطيلوا الجلوس، يستأنس بعضهم ببعض، لأجل حديث يحدث به، أو يستأنسون بحديث أهل البيت واستماعه، فأوجبت عليهم الآية احترام بيوت النبي، وأما في الملاء فأوجبت عليهم التعظيم بكل ما أمكن. .»[1].

وهل الأمر في قوله تعالى : «فإذا طعمتهم فانتشروا» هو للإرشاد أو للوجوب؟ والجواب : أن «الأمر للوجوب، وليس كقوله تعالى «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا» وذلك للدليل العقلي على أن بيوت الناس لا تصلح للمكث، بعد الفراغ مما دعي لأجله، والدليل النقلي، وهو قوله تعالى «ولا مستأنسين لحديث. .»[2].

وذلك الأدب يشمل الاستئذان على بيوته ﷺ، ورعاية أوقات الاستئذان، ووجوب الاحترام، والدخول على وجه الأدب، وحفظ مقام الرسول الأكرم، فإذا أذن لهم، فقضوا حوائجهم فليخرجوا، ولا يحملنهم حياؤه ﷺ وحسن خلقه على مباسطته، فنهوا عن ذلك[3].

وحتى لو كان «البيت غير بيت الرسول الكريم، فالثقيل مذموم في كل مكان، محتقر لدي كل إنسان»[4].

وفي قوله تعالى : «والله لا يستحي من الحق» : إشارة إلى أن الحيي لا ينبغي أن يمنعه حياؤه من إحقاق الحق، والآية تدل على أن المستحي منه «معنى من المعانى لا ذواتهم، ولو كان المراد ذواتهم لقال سبحانه : والله لا يستحي منكم، فالمراد بالحق إخراجهم، أو منعهم عن ذلك، ووضع الحق موضعه لتعظيم جانبه»[5].

والتعبير بقوله تعالى : «والله لا يستحي من الحق» إنما هو تعبير عن عدم الترك لإخراجهم بعدم الاستحياء، وهو للمشاكلة[6].

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، ج٢٢ ص٢٧ ط مصطفى الحلبي بالقاهرة.

(٢) المرجع السابق ص٢٧.

(٣) يراجع لطائف الإشارات للقشيري ج٣ ص١٦٨.

(٤) تفسير المراغي ج٢٢ ص٢٩ دار الفكر

(٥) تفسير الآلوسي ج٢٢ ص٧١ دار الفكر.

(٦) راجع روح البيان للبرسوي ج٧ ص٢١٤، وزاد المسير لابن الجوزي ج٦ ص٤١٥ المكتب الإسلامي.

والمشار إليه في قوله تعالى : «إن ذلكم» : هو اللبث بلا داع ، لما فيه من تضييق المنزل عليه ﷺ، وعلى أهله، وإشغاله بما لا يعنيه[1].

وذلك الحياء قد أدب الله رسوله عليه، فهو داخل ضمن : «أدبني ربي أحسن تأديبي» ونشأه عليه منذ صغره، وقد روى الرسول الأكرم : أنه حين أراد وهو صغير أن يحمل الأحجار في بناء الكعبة على كتفيه، ووضع إزاره صانعا ما يصنعه غيره، فتعرى، أتاه آت فلكزه قائلا : شد ثيابك عليك، وأصل هذا الحديث في البخاري[2].

ومن الأحاديث التي صرح فيها الرسول الأكرم باستحيائه من ربه : حديث الإسراء والمعراج، حين فرض الله على أمته الصلاة خمسين، ونصحه موسى عليه السلام بسؤال التخفيف، فما زال يسأل حتى صارت خمسا، فنصحه موسى بسؤال ما هو أقل من الخمس، فرد الرسود الكريم بقوله : «استحييت من ربي»[3]، وهو لون من الحياء، يشعر به ذو القلب الحي ، من كثرة إكرام من يكرمه، فيستحي أن يلحف في سؤاله، ومن أكثر حياء من الرسول الأكرم، ولعله ﷺ أدرك أنه لو سأل مرة أخرى لكان سائلا رفع الصلوات الخمس، فاستحيا من ربه سبحانه وتعالى.

حياء المرأة

قلت: إن المستحي من قام به الحياء، أو اتصف به، وقد تحدثت عن حياء الله سبحانه وتعالى، وحياء رسوله ﷺ، وحياء الآدميين، وفيما سبق من مدح الحياء وذم نقيضه تحدثت عن حياء الآدميين بعامة، بأنواعه من حياء من الله، ومن النفس، ومن الناس، معلمين كانوا أو كباراً فى السن، والذى يحتاج إلى أن يخص بالحديث من جملة الآدميين هو حياء المرأة، وبخاصة أن القرآن تحدث عنه حديثا مستقلا، ولأنه فى المرأة أكثر أهمية من الرجل.

وقد اكتفى القرآن الكريم في وصف المرأة التي جاءت موسى بقوله تعالى : ﴿ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا

(١) راجع حاشية الشهاب على البيضاوي ج٧ ص١٨٣ ط دار صادر.
(٢) حديث رقم ١٩٥ من اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.
(٣) متفق عليه.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ القصص : ٢٥ : ٢٦.

والظاهر من اكتفاء القرآن من صفات المرأة كلها بالاستحياء: أنه يغني عما لا يغني عنه غيره من الصفات، لأنه يدعو إلى بقيتها كلها، أو لأنه في هذا الموقف هو أجدر الصفات بالمرأة، حين تلقى رجلا غريبا عنها ليس محرما منها، وكثيرا ما ذمت المرأة البرزة التي لا تستنكف عن مخالطة الرجال، أو المرأة الوقاح التي تقول أو تفعل ما تذم به بين الرجال.

وقد وصف القرآن الكريم المستحقات للزواج من المؤمنات بقوله تعالى:

﴿ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ﴾ النساء : ٢٥.

ومما لا خلاف فيه أن الإحصان من لوازم الحياء، وكذلك الابتعاد عن اتخاذ الصديق والخليل، والقرار في البيوت، والبعد عن تبرج الجاهلية الأولى.

وقد وصف القرآن الكريم أمهات المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ الأحزاب : ٣٢ : ٣٣.

ومن لوازم حياء المرأة كما أشارت الآيتان: عدم الخضوع، والتكسر، اللين في القول، وتجنب تبرج الجاهلية.

ومن لوازمه أيضا: ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ

أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ النور : ٣١.

ويعلق الإمام مجاهد على قوله تعالى : «ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى» بقوله : كانت المرأة تخرج تمشي بين يدى الرجال، فذلك تبرج الجاهلية الأولى. وقال قتادة : كانت لهن مشية، وتكسر، وتغنج، فنهى الله تعالى عن ذلك، وقال مقاتل : التبرج أنها تلقى الخمار على رأسها، ولا تشده فيوارى قلائدها وقرطها وعنقها، ويبدو ذلك كله منها»[1].

ومما يتعلق بحياء المرأة على الخصوص والرجل كذلك : ألا تفشي المرأة سر ما يحدث بينها وبين زوجها، فالمفروض أنها أكثر حياء من ذكر العورات بحكم طبعها الأنثوي، وليس عندها من الجرأة ما عند الرجل، والإسلام لا يسامح المرأة، ولا يسامح الرجل في إفشاء أسرارهما.

وقد روى مسلم، وأبو داود بسنده، عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : إن من شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ثم ينشر أحدهما سر صاحبه.

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها : أنها كانت عند رسول الله ﷺ، والرجال والنساء قعود عنده، فقال : لعل رجلا يقول : ما فعل بأهله، ولعل المرأة تخبر بما فعلت مع زوجها، فأرم القوم، فقلت : إي والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون، وإنهن ليفعلن، قال : «فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة فغشيها، والناس ينظرون» رواه أحمد.

وقد وقف المفسرون عند آية القصص «فجاءته إحداهما تمشي على استحياء» وقال كل منهم في تفسيرها ما وفقه الله له، وكل أقوالهم يكمل بعضها بعضا، وتشكل إطارا كاملا لسلوك المرأة الحيية.

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، ج٢ ص٩٤ ط سابعة ١٩٨١م دار القرآن الكريم بيروت.

يقول الإمام السيوطي : «واضعة ثوبها على وجهها، ليست بسلفع خراجة ولا ولاجة»[1].

أي ليست كثيرة الخروج والدخول، وفي معنى سلفع يقول ابن منظور «وامرأة سلفع ـ الذكر والأنثى سواء ـ سليطة جريئة»، وفي الحديث: شرهن السلفعة البلقعة، والسلفعة: البذية الفاحشة القليلة الحياء.

وفي حديث أبي الدرداء : شر نسائكم السلفعة، وهي الجريئة على الرجال، وهو بلا هاء أكثر[2].

والاستحياء خلق ابنة شعيب بحكم تربيتها ودينها، ولم يكن تصنعا ولا تكلفا يفعل لغاية في نفسها، وهذا فرق بين الطبع والتطبع، وتلك عادة الأبكار.

قال أبو بكر بن طاهر: لتمام إيمانها وشرف عنصرها، وكريم نسبها أتته على استحياء.

قال أعرابي : لا يزال الوجه كريما ما غلب حياؤه، ولا يزال الغصن نضيرا ما بقي لحاؤه[3]. وهنا يعرض تساؤل : كيف جاز لشعيب أن يرسل ابنته في طلب رجل أجنبي؟ سواء أكان شعيب هذا هو النبي أو كان رجلا صالحا؟

والجواب : «لأنه لم يكن له من الرجال من يقوم بأمره، ولأنه ثبت عنده صلاح موسى وعفته، بقرينة الحال، من وصف ابنته له»[4].

وسر استحيائها: هو أنها لم تعتد على مخاطبة الغرباء من الرجال، شأن كل شريفة عفيفة، تتجنب محادثة الرجال إلا فيما تدعو إليه ضرورة. يقول الامام القشيري: «إنها استحيت لأنها كانت تخاطب من لم يكن لها محرما»[5].

وقد يقول قائل : إنها استحيت من موسى حين رأته فقط، وهذا مناقض للفعل «تمشي» ولتنكير استحياء، وفي ذلك يقول أبو السعود في تفسيره: «على استحياء

---

(١) الدار المنثور للإمام جلال الدين السيوطي، ج٥ ص١٢٥. دار المعرفة بيروت.
(٢) لسان العرب ج٨ ص١٦١ : ١٦٢ دار صادر بيروت.
(٣) روح البيان: للشيخ إسماعيل حقي البرسوى، ج٦ ص٣٩٦ دار إحياء التراث العربي.
(٤) المرجع السابق ٣٩٦.
(٥) لطائف الإشارات: للإمام القشيري، ج٣ ص٦١ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.

متعلق بمحذوف، وهو حال من ضمير تمشي. أي جاءته تمشي كائنة على استحياء، ومعناه: أنها كانت على استحياء حالتي المشي والمجيء معا، لا عند المجيء فقط، لأن تمشي يشمل الذهاب والرواح، وتنكير استحياء للتفخيم»[1].

وقد أخرج سعيد بن منصور، وابن جرير، وابن أبي حاتم، من طريق عبدالله بن أبي الهذيل، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه قال: جاءت مستترة بكم درعها على وجهها. وأخرجه ابن المنذر عن أبي الهذيل موقوفا عليه، وفي رفعه إلى عمر رواية أخرى، صححها الحاكم، بلفظ: واضعة ثوبها على وجهها. وهذا مما لم يقل به عمر إلا بإخبار النبي له، لاسيَّما أن أحدا من الصحابة لم يخالفه. ومشيها بتلك الكيفية المذكورة هي مشية الحرائر المتصونات.

وقد ساق الطبرى إضافة أخرى فقال:

«ومنهم من يقف على قوله تعالى «تمشي» ثم يبتديء فيقول: «على استحياء قالت.. الخ».

يعني: أنها قالت هذا القول على استحياء، لأن الكريم إذا دعا غيره للضيافة يستحي لا سيما المرأة[2].

ويشير أبو الحسن البصرى الماوردى إلى أن من أسباب حيائها: أنها دعته لتكافئه، وكان الأجمل مكافأته في مكانه بدون عناء، كما يضيف إلى مظاهر حيائها: أنها نادته من بعد، وتلك عادة المتصونات من الحرائر[3].

وفي إسنادها الدعوة إلى أبيها ما يدل على تعقلها وتعففها، ووفور حيائها، فذلك لا يوهم ريبة بها، فهي لم تدعه لنفسها، وإنما دعاه أبوها وهي رسولة إليه.

وفي ذلك يقول الآلوسي: «وفي إسنادها الدعوة إلى أبيها ما يدل على كمال العقل والعفة والحياء، روي أنه عليه السلام أجابها، فقام معها، فقال لها: امشي خلفي، وانعتي لي الطريق، فاني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك، ففعلت»[4].

---

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود ج٤ ص٢٣٠ دار الفكر.
(٢) الفخر الرازي، ج٢٤ ص٢٤٠ دار الفكر ١٩٨١م ولطائف الإشارات ج٣ ص٦١.
(٣) النكت والعيون ج٣ ص٢٥٥ ط أوقاف الكويت.
(٤) الآلوسي ج٢٠ ص٦٥ ط دار الفكر ١٩٨٧م.

وبمثله قال أبو السعود في تفسيره، وأضاف : «أسندت الدعوة لأبيها وعللتها بالجزاء لئلا يوهم كلامها ريبة»[1]، وحين وصفت موسى عليه السلام وصفته بما رأت من قوة وأمانة، دون إسفاف وزيادة، وقد علم أنهما ما سقتا ولا رعتا إلا لضعف الوالد، لذلك تجنبتا مزاحمة الرجال حين السقي، «لأن المرأة إذا كانت ذات حجاب تكون أشد حياء ممن لا تحتجب وتمشي في الأسواق»[2] وليس هذا على إطلاقه فليتأمل.

من حياء المرأة لبسها ما يستر بدنها.

مضى من الأحاديث ما ينهى عن التعري للرجال، وستر العورات يشترك فيها الرجال والنساء، ولكل منهما حدود للعورة حددها الشارع الكريم، والمرأة الحرة عورة مستورة، كما أشار الرسول الكريم، والفقهاء يقررون: أنه لا يستثنى إلا الوجه والكفان، وبينهم خلاف في القدمين.

والمرأة المسلمة لا بد أن يكون لها من حيائها ما يدفعها إلى ستر بدنها، لأن التكشف شأن الجواري والفاسقات والمبتذلات، وقد أمر الرسول الكريم بأن يأمر النساء بالتستر فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ الأحزاب : ٥٩ : ٦٠.

وللمحافظة على هذا الحياء والتستر ورد النهي عن أن تلبس المرأة ما يحكي بدنها، فهذا دليل على عدم الحياء، وإغراء للرجال بها. وبخاصة إذا خرجت من بيتها فزاحمت الرجال في الطرقات، «فعن أسامة بن زيد قال : كساني رسول الله ﷺ قبطية كثيفة كانت مما أهداها دحية الكلبي، فكسوتها امرأتي، فقال لي رسول الله ﷺ : مالك لم تلبس القبطية؟ قلت: يا رسول الله، كسوتها امرأتي، فقال رسول الله ﷺ مرها فلتجعل تحتها غلالة، إني أخاف أن تصف حجم عظامها».

وعن عبد الله بن عمرو قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : سيكون في آخر أمتي

---

(١) أبو السعود ج٤ ص٢٣٠

(٢) لامع الدراري على جامع البخاري، للشيخ أبي مسعود رشيد أحمد الكنكوهي ج٨ ص١١٤ ١٩٧٦م المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة.

رجال يركبون على السروج كأشباه الرجال، ينزلون على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات، على رؤوسهن كأسنمة البخت العجاف. العنوهن فإنهن ملعونات، لو كانت وراءكم أمة من الأمم لخدمن نساؤكم نساءهم، كما يخدمن نساء الأمم قبلكم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أهل النار لا أراهما بعد، نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات، على رؤوسهن مثل أسنمة البخت المائلة، لا يرين الجنة، ولا يجدن ريحها، ورجال معهم أسواط كأذناب البقر، يضربون بها الناس»[1].

ويفهم من الحديث الأول: أنه يحرم على المرأة أن تلبس ثوبا غليظا ضيقا يصف حجمها، أو رقيقا يشف عن لون بشرتها، والمطلوب أن يكون ثوب المرأة كثيفا واسعا، لا يصف جسمها ولا بشرتها. كما يشير الحديث الثاني إلى أن تارك امرأته كاسية عارية هو شبيه رجل، وليس رجلا فعلا، والكاسية العارية هي التي تستر بعض بدنها، وتكشف بعضه، أو تلبس ثوبا رقيقا يشف عنه، كما شبه غطاءهن لرؤوسهن بعمائم الرجال، وهو من شعار المغنيات.

فأما الحديث الأخير: فيشير إلى أن الكاسيات العاريات لم يوجدا في عصر الرسول الكريم، لطهارة ذلك العصر، وإنما حدثا بعده، والمائلات: الزائغات عن الطاعة، والمميلات: المزيغات لغيرهن، أو هن المتبخترات في مشيتهن، المميلات أكتافهن وأكفالهن، أو مائلات: يتمشطن المشطة الميلاء، مشطة البغايا، ومميلات: مرغبات لغيرهن في فعل ذلك، أو مائلات للرجال، مميلات قلوبهن إلى الفساد بهن، بما يبدين من زينتهن. والحديثان من أعلام نبوته ﷺ[2].

---

(١) الفتح الرباني: للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ج١٧ ص٣٠١ : ٣٠٢.
(٢) راجع المرجع السابق نفس الجزء والصفحات.

# خاتمة

وبعد : فبعد هذه السياحة في كتاب الله، وسنة نبيه، وكتب التفسير والحديث والأخلاق، نخرج بأمور على جانب كبير من الأهمية، وهي :

أنه لا بد من أن يكون من أهم المقاصد في التربية الإسلامية : غرس الحياء عن طريق البيت والمدرسة والمجتمع، بحيث يكون الدافع إلى الخلق الفاضل، والمعاملة المثلى، نابعا من داخل الفرد، فتسهل مراقبة النفس ومجاهدتها، حتى تتكون في النفس المسلمة ملكة اللوم على فعل السوء، والقدرة على كبح جماح النفس الأمارة.

وهذا ضروري جدا لأي مجتمع ينشد الكمال والرقي.

وقد رأينا كيف حفل القرآن بآيات المراقبة لله، والخشية له، والخوف منه، وتنمية الإحساس بالنعمة، والتحشم من فعل ما يجلب اللوم على صاحبه، وكيف وردت الأحاديث تترى في التأكيد على أن الحياء أهم الأخلاق الإسلامية جمعا، ولذا خص الحياء بالذكر في حديث شعب الإيمان، وحثت عليه الشرائع، في الوقت الذى ذم نقيضه في جمهرة من الأحاديث، وتوعد الرسول الكريم من يفعل ما يشاء دون حياء.

وقد يولد الإنسان حييا، يهبه الله هذه السجية الكريمة، وقد يرثه من أبويه، وقد يكتسبه من التربية الفاضلة التي تنشد التحلي بأخلاق الإسلام، ولذا انقسم الحياء إلى غريزى ومكتسب.

كما قد يكون الحياء من الله، أو من الناس، أو من النفس، وأولها هو قمة هذا الخلق، وما هو من النفس أو من الناس : هو فرع للحياء منه سبحانه وتعالى.

كما قد يكون حياء حشمة، أو جناية، أو استعظام، أو نعمة.

وهناك حياء ينسب إلى الله كما أشار القرآن والسنة، وحياء وصف به رسوله

الكريم، كما أن هناك ـ كما أسلفت ـ من الحياء ما يوصف به أفراد الأمة، فالله يستحي من تعذيب ذى الشيبة المسلم، ويستحي ممن دعاه أن يرده صفرا، وكان الرسول أشد حياء من العذراء في خدرها.

ولا ينبغي أن يحجز الحياء صاحبه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه هنا أحرى بأن يوصف بأنه جبن وتقاعس عن فعل الخير.

والمجتمعات لا تستغني بأى حال عن غرس الحياء في أبنائها رجالا ونساء، فهذا أفضل السبل لتجنب الرذائل الموبقة التي تهز المجتمعات من قواعدها، وتهلك الحرث والنسل، وتهدد بشر مستطير، والحياء حصن تحتمي به المرأة والرجل من المفاسد، سواء جاءت من الداخل بوسوسة الشيطان، أو من الخارج بوسوسة شياطين الإنس.

وأرجو أن يكون ما بينته : من أن الحياء خلق إسلامي أصيل، دعا إليه الكتاب والسنة وعلماء الأمة هاديا لي ولغيرى، وأن أحبب الحياء لكل من يقرأ هذا البحث.

وأخيرا أذكر بهذا الأثر الطيب، فقد سأل عمر بن عبد العزيز الحسن البصرى أن يعظه فكتب اليه : أما بعد، فإن الرسول الأعظم والأمو المفظعات أمامك، ولا بد لك من مشاهدة ذلك، إما بالنجاة، وإما بالعطب، واعلم أن من حاسب نفسه ربح، ومن غفل عنها خسر، ومن نظر في العواقب نجا، ومن أطاع هواه ضل، ومن حلم غنم، ومن خاف أمن، ومن آمن اعتبر، ومن اعتبر أبصر، ومن أبصر فهم، ومن فهم علم، فاذا زللت فارجع، وإذا ندمت فأقلع، وإذا جهلت فاسأل، وإذا غضبت فأمسك.

وأخيرا أسأل الله أن يجعل فيما بينته نفعا لي ولغيري من المسلمين.

إنه نعم المولى ونعم النصير.

# المراجـــع


١ ـ إحياء علوم الدين ـ للإمام الغزالي ـ المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة.
٢ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود العمادى ـ دار الفكر.
٣ ـ بذل المجهود في حل أبي داود: للشيخ خليل السهانفورى ـ تعليق محمد زكريا الكاندهولى.
٤ ـ الترغيب والترهيب ـ للحافظ المنذرى ـ ط وزارة أوقاف مصر.
٥ ـ تفسير البحر المحيط ـ لأبي حيان التوحيدى ـ مكتبة النصر الجديدة بالرياض.
٦ ـ تفسير حاشية الشهاب على البيضاوى ـ دار صادر.
٧ ـ تفسير روح المعاني ـ للآلوسي ـ دار الفكر ١٩٢٧م.
٨ ـ تفسير زاد المسير ـ لابن الجوزى ـ المكتب الإسلامي.
٩ ـ تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان ـ للنيسابورى ـ مصطفى الحلبي.
١٠ ـ تفسير الطبرى ـ دار المعرفة ١٩٨٣م.
١١ ـ تفسير المراغي ـ أحمد مصطفى المراغي ـ دار الفكر.
١٢ ـ التفسير الكبير ـ للفخر الرازى ـ دار الفكر ١٩٨١م.
١٣ ـ تفسير النكت والعيون ـ لأبي الحسن البصرى الماوردى ـ أوقاف الكويت.
١٤ ـ تمييز الطيب من الخبيث فيما اشتهر على ألسنة الناس من الحديث لابن الديبع ـ ط صبيح بالقاهرة.
١٥ ـ تنبيه الغافلين لليث السمرقندي ـ دار الرائد العربي بيروت.
١٦ ـ جامع بيان العلم وفضله ـ لابن عبد البر.
١٧ ـ جامع العلوم والحكم ـ لابن رجب ـ ط خامسة ١٩٨٠م ـ مكتبة الدعوة الإسلامية بالقاهرة.
١٨ ـ حكم بن عطاء الله السكندري، مع شرحها: غيث المواهب العلية للرندي ـ دار الكتب الحديثة بالقاهرة.

١٩ ـ خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال ـ للحافظ صفي الدين أحمد بن عبد الله الخزرجي ـ مكتبة القاهرة.
٢٠ ـ الدر المنثور للإمام جلال الدين السيوطي ـ دار المعرفة بيروت.
٢١ ـ دليل الفالحين شرح رياض الصالحين ـ لابن علان ـ مصطفى الحلبي بالقاهرة.
٢٢ ـ الرعاية لحقوق الله ـ للحارث بن أسد المحاسبي ـ طـ رابعة ١٩٨٥م ـ دار الكتب العلمية بيروت.
٢٣ ـ روح البيان لإسماعيل حقي البرسوى ـ دار إحياء التراث العربي.
٢٤ ـ سنن ابن ماجه ـ بتعليق محمد فؤاد عبد الباقي ـ طـ الحلبي بالقاهرة.
٢٥ ـ شرح الأبي على صحيح مسلم ـ دار الكتب العلمية بيروت.
٢٦ ـ شرح الزرقاني على موطأ مالك ـ ١٩٣٦م ـ دار الفكر.
٢٧ ـ صفوة البيان القرآني ـ للشيخ حسنين مخلوف ـ طـ ثالثة ـ أوقاف الكويت.
٢٨ ـ عون البارى لحل أدلة البخارى ـ للشيخ أبي الطيب صديق حسن علي الحسيني القنوجي البخاري ـ دار الرشيد ـ حلب.
٢٩ ـ فتح الباري لابن حجر ـ طـ مصطفى الحلبي بالقاهرة.
٣٠ ـ الفتح الرباني شرح وترتيب مسند أحمد ـ للشيخ أحمد عبد الرحمن البنا ـ دار التراث العربي بيروت.
٣١ ـ فيض القدير للمناوي على الجامع الصغير للسيوطي ـ طـ ثالثة ١٩٧٢م ـ دار المعرفة بيروت.
٣٢ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس ـ للعجلوني.
٣٣ ـ لامع الدراري على جامع البخارى ـ للشيخ أبي مسعود رشيد أحمد الكنكوهي ـ ١٩٧٦م ـ المكتبة الإمدادية بمكة المكرمة.
٣٤ ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان ـ لمحمد فؤاد عبد الباقي ـ أوقاف الكويت.
٣٥ ـ لسان العرب ـ لابن منظور ـ دار صادر بيروت.
٣٦ ـ لطائف الإشارات ـ للإمام القشيرى ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣م.
٣٧ ـ مجمع الزوائد ـ لابن حجر الهيثمي ـ طـ ثالثة ١٩٨٢ ـ دار الكتاب العربي.
٣٨ ـ المجموع شرح المهذب للنووي
دار الفكر بيروت.

٣٩ ـ مختصر تفسير ابن كثير للصابوني ـ طـ سابعة ١٩٨١م ـ دار القرآن الكريم بيروت.
٤٠ ـ مدارج السالكين ـ لابن القيم ـ طـ جماعة أنصار السنة بالقاهرة ـ دار الوفا بالمنصورة.
٤١ ـ مرقاة المفاتيح لعلي بن سلطان القاري، شرح مشكاة المصابيح للخطيب التبريزى.
٤٢ ـ منهاج اليقين للشيخ أويس وفابن محمد بن خليل بن داود الأرزنجاني، الشهير بخان زادة. شرح أدب الدنيا والدين لأبي الحسن البصرى الماوردي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.
٤٣ ـ موسوعة أخلاق القرآن للدكتور أحمد الشرباصي ـ طـ أولى ١٩٨١م ـ دار الرائد العربي بيروت.

## Bashfulness or Modesty (al-Hayā') is Part of Faith

**By : Muhammad Mahmud Mutwali**

Bashfulness or modesty (al-Hayā') is a constellation of most merits and good manners and is an outcome of one's strong faith in Allah, the Most Powerful, the Exalted. No people can do without having this quality which is the incentive to doing good deeds for the sake of the present life and for the Hereafter. The Glorious Qur'ān and the Noble Sunnah (the Prophetic example) exhort people to be modest Bashfulness or modesty is the fruit of knowing Allah, seeking to please Him and abstaining from whatever Allah prohibits. The researcher defines (al-Hayā)) linguistically and gives its common meaning and concludes that (al-Hayā) is good manners which is exhorted by all the Divine messages which had disclosed the vileness of its negative morality, obscenity and indecency. Obscenity and indecency are undesirable bad morals which are censured. Unbashful persons are dispraised and their propogation and show off of bad morals should be checked. They should be punished, reclaimed and guided towards the right path.

The researcher has distinguished between bashfulness some negative morals which are sometimes mixed with bashfulness, such as cowardice and hypocrisy.

"al-Hayā" is classified into "acquired" and "instinctive" bashfulness. Then, the researcher proceeds to explain what helps in the acquisition of bushfulness divisions: Bashfulness with Allah, with people, with oneself and bashfulness of Allah, of his Prophet and of people.

In attributing bashfulness to Allah the present researcher explained its meaning according to scholars and in describing the bashfulness of people, he concentrated on woman; her bashfulness, self-respect and pudency - Bashfulness, which is decorum and a crown that adornes and beautifies a woman exalts her position and makes her abstain from whatever draws on herself wrath from Allah.